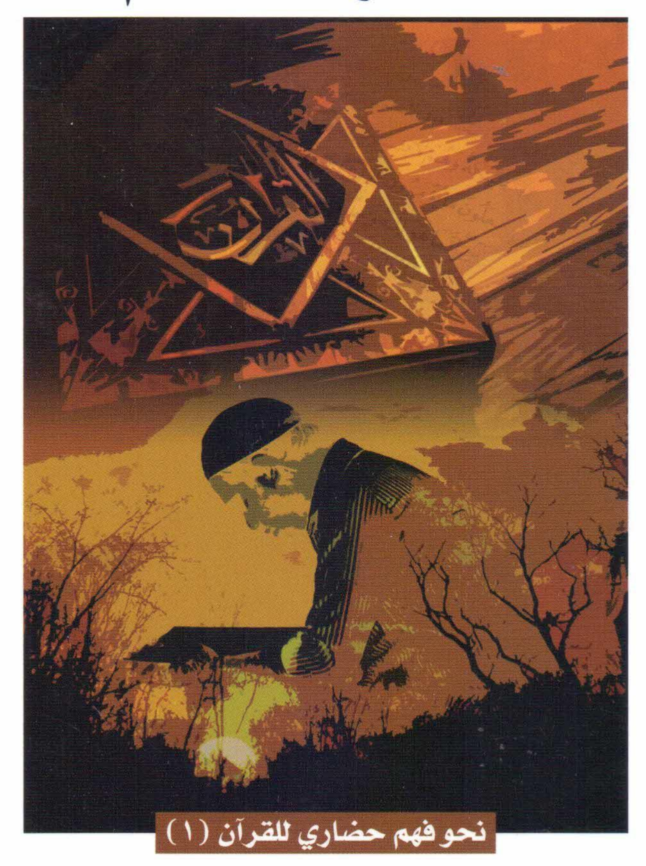


أنا والقرآن

محاولة فهم



نحو فهم حضاري للقرآن (١)

د. جاسم سلطان





هذا الكتاب

هذا ليس كتاب تفسير، وليس سرداً للقصص والأحداث، إنّما هو محاولة غوص متواضعة في بحر أفكار القرآن الكبرى، ومحاولة تقريبها للمهتمّين. فلطالما قرأنا القرآن بعيون المفسّر، الذي ربما نقلها من مفسّر آخر سابق له، ومع النقل والنقل من النقل تتوارى الرّسالة الحقيقيّة وتغيب الصورة. لذلك، إنّ التأمّل التجريدي لبنية الأفكار القرآنيّة مسار حريّ بالتفكير، للتعرّف إلى كيفيّة معالجة القرآن لخلل التصوّرات وإعادة بنائها.

إنّ هذا الكتاب هو خواطر قرآنيّة في رحلة ذاتيّة قصيرة مع سورتي الفاتحة والبقرة. جوهره البحث عن مُنظِّمات العقل والتصوّر في القرآن، وهي الأساس المكين لإصلاح عالم العلاقات الإنسانيّة، وعالم المشاريع البشريّة ولصناعة حضارة الرحمة بكل البشر.

فالقرآن ينتظمه معنى كبير، وهو إصلاح عالم الأفكار وزرع التقوى في نفس الإنسان، وهو ما سنحاول أن نعرّفه في هذا الكتاب الذي جاء في مقدّمة وتمهيد وباب لسورة الفاتحة وأفكارها الكبرى، وآخر لسورة البقرة وجولاتها.



الثمن: ٨ دولارات
أو ما يعادلها



الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت - القاهرة - الدار البيضاء

المكتب الرئيسي - بيروت

هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ - ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail: info@arabiyanetwork.com

أنا والقرآن

نحو فهم حضاري للقرآن (١)

أنا والقرآن

محاولة فهم

د. جاسم سلطان





الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر
سلطان، جاسم
أنا والقرآن: محاولة فهم/ جاسم سلطان.
٢٥٥ص. (نحو فهم حضاري للقرآن؛ ١)
ISBN 978-614-431-107-3
١. القرآن الكريم ـ تفسير. أ. العنوان. ب. السلسلة.
297

الطبعة الأولى عن الشبكة، بيروت، ٢٠١٥

مدير المشروع: أ. جمال المليكي
المتابعة والتنسيق: أ. أحمد درويش

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ المكتب الرئيسي: رأس بيروت ـ المنارة ـ شارع نجيب العرداتي
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ محمول: ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail:info@arabiyanetwork.com
القاهرة ـ مكتبة: وسط البلد ـ ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٢٥ محمول: ٠٠٢٠١١٥٠٢٩٦٤٩٢
E-mail:info@arab-network.org
الدار البيضاء ـ مكتبة: ٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع مولاي إدريس الأول
هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧ محمول: ٠٠٢١٢٦٦٤٣٢٣٠٤٠
E-mail: info-ma@arab-network.org

المحتويات

الباب الأول

تمهيدات

الباب الثاني

سورة الفاتحة

الباب الثالث

سورة البقرة

تمهيد

إن فكرة الاقتراب من القرآن الكريم ذاتياً ومن دون وسيط، وطرح الأسئلة من دون خوف، وتقبّل الحيرة في مواضع، والتحرر من قيود أفهام العصور مغامرة كبيرة ولكنها مستحقة فالعائد على الروح والعقل لا يعادله شيء. هكذا كانت الرحلة مع سورة البقرة فقد تجذرت التصورات والاستنتاجات في الروح والعقل وبقيت راسخة سهلة التذكّر، تلك كانت اللمسة الأولى...

أما اللقاء بالجمهور العام ونقل التجربة ليشترك معي فيها الآلاف ممن قرؤوا الكتاب، ورؤيتي شباباً وفتيات وسيدات وسادة يحملون الكتاب في الطائرة أو على المكتب، أو قارئاً يتصل بي ليسأل عن معنى أو عبارة فكان شيئاً استثنائياً في جانب المشاعر، فمجرد اشتراك هذا العدد في رحلة القرآن كان أمراً لم أتوقعه، فالكتاب كان تجربة ذاتية تحوّلت إلى مشروع كتاب.

وقد ولّدت التجربة مسؤولية أسأل الله أن يعينني على الوفاء بها وهي استكمال المشروع حتى نهاياته فالرحلة مع كتاب الله متواصلة ومعين الكتاب المجيد لا ينضب.

د. جاسم سلطان

مقدمة

هذا الكتاب هو ـ إن شاء الله ـ جزء من سلسلة جارٍ استكمالها، موضوعها الارتحال مع آي القرآن تدبراً وتعلماً، وقد كانت حلماً راودني منذ زمن بعيد، وبقي مؤجلاً، كلّما تقدّمت منه أجّلته؛ لأني أعلم أنه سيحتاج إلى وقت وجهد، وتركيز كبير؛ فالوقوف عند آي الكتاب مقام عظيم، لكن الأمور ـ حين ييسر المولى لها ظروفها ـ تتحرك لمقاديرها، فكان هذا الكتاب الذي أتقدّم فيه بالشكر لعدد من الأفاضل الذين جعلوه ممكناً؛ وأخصّ منهم: الوجيه الكريم عدنان إبراهيم عبد الجبار الخالدي الذي كان الحديث معه عن ضرورة الموضوع حافزاً كبيراً لمباشرة العمل، وفريق العمل: جمال المليكي، أحمد لطفي، علي ضيف الذين سهروا في المراجعة والتدقيق، والمتابعة للتفصيلات.

ولا يفوتني ذكر أهل الدار: الزوجة الكريمة أم محمد التي كان لها الفضل الأكبر طوال رحلة العمر في تفرُّغي للكتابة والبحث، فكل حرف أكتبه كانت وراءه يد حانية وفّرت المكان والأجواء والعناية التي أعانت على التفكّر والنظر، فلها

الشكر بعد الله موصولاً، ولعشرات من الجنود الأخفياء الأتقياء الذين أعانوني خلال رحلة العمر على مواصلة الكتابة والبحث والنظر...

د. جاسم سلطان

مفتتح

في مجتمعات الإسلام اليوم خوفٌ من التساؤل والنظر، وهما ابنا مرحلة الانكماش التي أسقطت الحضارة الإسلامية في الجمود وأخرجتها من الدورة الحضارية البشرية.

والخوف من التفكُّر والسؤال بدعوى المحافظة على الإيمان عجيب! لأن القرآن جاء لقوم أمّيين ومُشركين، فطالبهم بالتفكُّر والتدبر، وعرض على عقولهم القرآن مع قلة أدواتهم وعدّتهم المعرفية، وطالبهم بالدليل والبرهان، وهو موضوع حريٌّ بالتفكُّر والتأمل، فما الذي أهّلهم لمثل ذلك الطلب؟ وما الذي يُؤهّلنا اليوم للطلبِ ذاته؟

فالقرآن ما يزال يعرض نفسه للتفكُّر والتأمل، ولئن ساغ أن يتأمله الأميون المُشركون، فإن المُسوّغ له اليوم أكبر مع انتشار العلم وقرب مصادر المعرفة في كل العلوم وتوفّر العلماء، وكثرة الاحتكاك بهم، فالقرآن كتاب تدبر لا كتاب هذرمة.

لِمَ الكتاب؟

• بحث عن الخرائط العقلية

حين نقترب من القرآن باحثين عن الصراط المستقيم،

صراط الذين أنعم الله عليهم، ونستحضر طاقتنا العقلية، لنسير مع الكتاب الخالد، لنكتشف أسراره، ونطلب الهداية والحكمة؛ فنحن نقوم بمهمةٍ طالَبَ بها القرآن ـ ابتداءً ـ كل البشر؛ إذ إنه طالبهم أن يتفكّروا ويتدبروا وينظروا ويفقهوا ويعقلوا، لأنه لا يعطي ثماره إلا لمن يطلبها بصدق، ويستخدم عقله وبصيرته ما استطاع.

وعبر القرون، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، سيستمر البحث في القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

إنّ هذا الكتاب جوهره البحث عن مُنظّمات العقل والتصور في القرآن، وهي الأساس المكين لإصلاح عالم العلاقات الإنسانية وعالم المشاريع البشرية، ولصناعة حضارة الرحمة بالبشر، كل البشر، والخلق، كل الخلق.

إصلاح عالم الأفكار يأتي أولاً؛ وهو حرب الحروب، وأكبر المعارك وأشرسها وأعتاها، ومنه تتفرع كل الأعمال: صالحها وطالحها. ذلك هو السبب الأول الذي حرّك هذه الرحلة.

لِمن الكتاب؟

إن الكتاب لكاتبه ابتداءً؛ فأول المستفيدين من الرحلة هو الكاتب، ويأتي بعده كل طالب للفكرة في القرآن، وكل من يريد النظر في القرآن من زاوية عالم الأفكار العميق.

لقد أُرسل الرسول (ﷺ) في قوم أُمّيين، وأُنزل القرآن على قوم أُمّيين ليس لهم من العلم شيء، تحجّرت أفكارهم حول

مقررات الآباء فخاطبهم وطلب منهم أن يتدبّروا فرادى وجماعات، وأن يبحثوا عميقاً في القرآن وفي خطابه، ووثّق أنهم قادرون على الوصول إلى الحقيقة إن تخلّصوا من موروثات الآباء وسلطة المصالح الضيقة.

إن البعض يعتقد أن القرآن مُوجّه إلى العلماء للنظر فيه؛ حيث لم يكن حينها علماء، بل القرآن والرسول (ﷺ) وعرب الجاهلية وأهل الكتاب، تلك هي الحقيقة البسيطة.

ونحن في عصرٍ أصبحت كل وسائل المعرفة وكتب التفسير ومعاجم اللغة متاحة، مع سهولة الوصول إلى المعلومة والتواصل مع العلماء، هذا هو عصر التفكُّر بامتياز.

على من عرض القرآن نفسه ابتداءً؟

القرآن يعرض نفسه على الإنسان في كل عصر، هذا صحيح، ولكنّه عرض نفسه ابتداءً على أُمّة أُمّية، ولم يطالبها أن تتعلم لتتدبّر القرآن، ولم يسألها عن مؤهلاتها لتناقشه بل تركها تتفاعل معه بقدر معطياتها ومستوى مدركاتها، ووثّق بقوة الحق الذي يحمله، وقدرته على النفاذ إلى عمق العقل وعمق النفس، تلك قضية حرِيّة بالتأمل؛ فأخطر فضاء هو الاعتقاد. والقرآن بقي يتنزّل ثلاث عشرة سنة، يُعالج في القلب قضية الاعتقاد، وتلك هي أمّ القضايا، ولم يشترط لفهمها شروطاً مُعقّدة ولا علماً متخصصاً، وذلك ما يطرح نفسه اليوم بقوةٍ مع توفر مصادر المعرفة في كل المجالات.

تدبُّر القرآن اليوم أصبح في قلب مهمة تجديد فهم الدين، والقرآن ما زال غضّاً طريّاً مفتوحاً على العصر.

ما الجديد؟

هذا ليس كتاب تفسير، وليس سرداً للقصص والأحداث، إنّما هو محاولة غوص متواضعة في بحر أفكار القرآن الكبرى، ومحاولة تقريبها للمهتمّين.

إنّ التأمل التجريدي لبنية الأفكار القرآنية مسار حريّ بالتفكير، للتعرف إلى كيفية معالجة القرآن لخلل التصورات وإعادة بنائها.

القرآن بين التجريد والفكرة الناظمة

حين ننظر إلى القرآن سنجد نسيجاً ضامّاً يُشكّل أرضية القضايا ويضمُّ بعضها إلى بعض، وهذه الأرضية هي قضية الإيمان والآخرة والبشارة والنذارة. ولكنك ستجد في هذا النسيج موضوعات متنوعة تفاجئك بنقلاتها، بحيث تستفز فيك كل طاقتك لمحاولة المتابعة، فالموضوعات تنتقل بشكل مُطّرد بين قضايا شتى. ولذلك، فإن محاولات رسم خط كليّ ناظم ـ كما حاول سعيد حوى عليه رحمة الله في **الأساس** أو محمد الغزالي في تفسيره، وأمثالهما ـ كلّها لم تصل إلى شيء مُقنِع. ولذلك، لن نسعى إلى شيء من ذلك في بحثنا، وحسبُنا أن نعتقد أن القرآن ينتظمه معنى كبير؛ وهو إصلاح عالم الأفكار، وزرع التقوى في نفس هذا الإنسان، وهو ما سنحاول أن نعرفه في رحلتنا.

القرآن والأنساق الداخلية

الاقتراب من النص القرآني يكشف باستمرار عن حجم

النقص الذي نعانيه في رؤية الأنساق التصورية للمعالجات القرآنية في مختلف جوانب التصور. لقد طغى على أفكارنا النظر الجزئيّ للمنظُومات القرآنية، وتقديم الخاص على العام، والجزئي على الكليّ، بل وفي أحيان كثيرة تأثرت نظرة المسلمين إلى القرآن بآثار العصور، فاستعيض عن تصور العلاقات الإنسانية الطبيعية بالبناء على الأحوال الاستثنائية، وجعلها الأساس. إن التدبر في القرآن يكشف الكثير، ويُنتظر الكثير من التدبر الذي لا ينضب على مرّ العصور.

بنية الكتاب

لقد حكم النص القرآني بنية هذا الكتاب، فجاء في مقدمة، وباب تمهيدي، وباب لسورة الفاتحة، وباب لسورة البقرة. ففي التمهيد استعرضنا أهم الأفكار التي دعت إلى كتابة هذا الكتاب وأهم ما يجب استحضاره عن الكتاب الكريم، وفي الباب الثاني استعرضنا الفاتحة وأفكارها الكبرى، وفي الباب الثالث استعرضنا البقرة وجولاتها.

الباب الأول

تمهيدات

تمهيدات

الدين نص، والتديّن وعي الإنسان بمدلول النص، وملاءمة هذا الوعي لاحتياجات مكانٍ ما وزمانٍ ما وثقافةٍ ما، هي المثلث الكبير الذي تدور فيه مسألة الدين. ونحن من دون عناء سنلحظ أن النص ثابت ما لم يُحرّف. ولكنّ الفهم واحتياجات العصر متغيرات كبرى، تؤثر في وجود الدين وفاعليته، أو عدم فاعليته في إطلاق ممكنات مجتمع ما نحو تحقيق أقصى طاقاته.

والمجتمعات المُسلْمة ببعض الاستثناءات الظرفية، تشكو من تخلّف شديد في السياسة والاقتصاد والاجتماع والصناعة والزراعة والصحة؛ وفي النظام والنظافة، وفي الأمانة والأخلاق العامة؛ مقارنة بأمم الأرض. والعقل التبسيطي يفسّر هذا التخلف بأننا لا نطبق الإسلام، وعندها يتم استدعاء قصص عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز (ﷺ)، وعن بغداد المأمون، وعن الأندلس المفقود، على اعتبار أن تلك نماذج لأناس طبّقوا الدين فنجحوا، ونحن لا نطبّقه ففشلنا. والمقاربة هنا تختار من تلك الأحقاب زاوية معينة لعرضها والتدليل على النجاح، وتُهمل الصورة الكلية وتفصيلاتها. فكل هذه النماذج لها سياقات وتفصيلات ومدى

زمني، يفقدها ذلك التصور المثالي المرسوم في الأذهان.

سنجد أنفسنا باستمرار، وفي كل هذه الحالات، أمام فرد تغلّب بفهمه على معوّقات كبرى في عصره، وحقّق نجاحاً محدوداً في عمره الزمني، ولكن لا يمكن تعميم ذلك على كل عصر أو زمن، فما أن يغيب هذا الفرد الصالح حتى تنتكس الأمور، وتعود الصورة إلى حالة التخلّف السابقة لها.

إن التاريخ المتوفر بين أيدينا ـ بغضّ النظر عن مدى دقته ـ يقول لنا شيئاً كثيراً، ليس عن النص المقدس في حدّ ذاته، ولكن عن مدى كفاية فهم النص لإنتاج الإجابات السليمة عن احتياجات العصر وتحدياته. واليوم ـ كما في أي زمن سبق ـ هناك عصر له أسئلته، وهناك العقل البشري الذي يقرأ النص ومنهجياته، وهناك النص المستقر.

واقعنا متخلّف بامتياز، فهل فهمنا للنص كافٍ لإنتاج إجابات كافية لانتشال واقعنا من التخلف؟

إن المشكلة الكبرى ليست في النص، ولكنها في طبيعة التدين الذي يتحرك في عصرٍ ما ويشكّل الحياة وهو ابن الفهم من النص وما يحيط به، من هنا، يأتي التخلّف أو التقدم في البيئات المتدينة. ونحن في رحلة مع القرآن لنكشف جوانب من هذه القصة الكبرى في علاقة العقل بالنص.

النص والزمان والمكان

حين ننظر إلى طبيعة النص القرآني من حيث التنزيل، ونقول إنه نزل منجّماً بحسب الحوادث، وعلى فترة امتدت ثلاثاً

وعشرين سنة، فإننا نشير بذلك إلى ارتباط النص بالأحداث المختلفة التي صحبت التنزيل. وحين ننظر إلى المدونة الحديثية التي نقلت لنا ظروف التنزيل، نجد نقصاً كبيراً في المادة؛ وأحياناً اضطراباً في الروايات واختلافاً فيها. وبعد مُضي أكثر من ألف وأربعمئة سنة من التنزيل، يجد القارئ نفسه أمام عدد من الأحداث التي ليس لها وجود في واقع اليوم؛ ويتساءل عن القَدْر العابر للزمان والمكان من النص من ناحية التعبير عن أسئلة العصر الذي نعيشه.

القرآن والواقع

لماذا لم يتنزل القرآن كنص دفعة واحدة في شكل قواعد كبرى تصبح دستوراً كونياً للناس، بغضّ النظر عن الواقع وتفاعلاته؟

إن إجابتنا عن السؤال تخمينية صرفة؛ فالقرآن لا يقدّم لنا وصايا عشر كما هو الحال مع موسى (عليه السلام) وقومه، بل يقدم لنا تجربة بشرية تتفاعل مع النصّ ويتفاعل النص معها، إنه يقدم لنا جدلية النص مع الواقع في حوار مستمرّ. والواقع في القرآن يثير قضاياه، والنص يستجيب، والواقع يتغيّر؛ فمكة غير المدينة، وأسئلة مكة غير أسئلة المدينة، والمكوّن البشري في كل منهما مُختلف.

إن القرآن يرينا تفاعل البشر مع النص؛ قوتهم وضعفهم وترددهم وأهواءهم، يرينا الإنسان العادي وليس الإنسان المثاليّ، لقد طلب المشركون معجزة أو مَلكاً ليُبلغهم الدين، وطالبوا بشخص لا يأكل الطعام ولا يمشي في الأسواق، وعيّروا

الرسول (ﷺ) بغياب الأبناء من الذكور. وحرص القرآن على أن يسجل خلجات نفس الرسول (ﷺ) ومخاوفه وحيرته أحياناً، وعدّل على قراراته الاجتهادية ولحظات غضبه، وعلّق على حياة أهل بيته وأصحابه وأعدائه، في الحرب والسلم، في لحظات الانتصار ولحظات الانكسار، بين السمو عند أهل تلك الفترة من المؤمنين ولحظات الضعف على قدم سواء، كل شيء في القرآن هو حوار مع الإنسان.

التعليم والوعظ والإنذار والبشارة والأحكام والتعليلات، كلها حوار مع الإنسان، فعلى الرغم من تأكيد القرآن علم الله وحكمته، إلا أن القرآن لا يكفّ عن تعليل الأحكام، وعن الحوار والشرح، فهو يخاطب مستوى اليقين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، ويخاطب مستوى الأسئلة من الدرجة الثانية عن العلل والأسباب، وكلاهما في غاية الأهمية للطبيعة الإنسانية ولما يُصِلح البشر.

إنّ أي حوار عن الإيمان ينطلق من مُسلّمات العقل، ويؤسّس لمنطقة ثبات واستقرار في مقابل الأشياء التي لا يحيط العقل بأسبابها، ولكنّ العقل يحتاج إلى إقناع فيما هو من طبيعته وفي محيط وعيه، ولو خوطب بما لا يعقل لكُذّب الله ورسوله (ﷺ)، وهنا يأتي دور الحوار والتعليل.

القرآن نسيج وحده

إنك لو قرأت قصة لَن تُعاوِد قراءتها في الغالب؛ فلو فهمت فكرتها، فأنت تُعيد المشاهد ذاتها في ذهنك وتتوقع ما بعدها، والقرآن ليس على غرار الكتابة البشرية، إنه كتاب بقدر ما يشدّك

بقدر ما يُحيّرك، إنه ينتقل بك في موضوعات شتى فتعاود القراءة والنظر، وكلما قرأته توقعت أن تكتشف جانباً من المشهد غفلت عنه، فهو لا يخلّق على كثرة الرد، أي لا يتقادم أو يُستهلك بسبب كثرة الاستخدام أو مرور الأيام.

الإنسان كائن صغير في كون ملآن بالأسئلة

حين نقول: إن الإنسان كائن صغير، فتلك حقيقة صمّاء بحساب الأحجام والأوزان، فماذا يكون الإنسان مقارنة بالأرض؟ وماذا تكون الأرض مقارنة بالشمس؟ وماذا تكون الشمس مقارنة بالمجرّة؟ وماذا تكون المجرة مقارنة بملايين المجرات السابحة في فضاء لا يعلم حدوده إلا الله؟

وحين نقول: تُحيط به الأسئلة من كل جانب فتلك حقيقة أخرى: من هو؟ ولماذا هو؟ وإلى أين هو؟ وما الكون وما حدوده؟ وهل فيه مخلوقات أخرى؟ وهل هي مخلوقات عاقلة؟ أو هو كون واحد أم أكوان؟ ومن خلقه؟ ولماذا خلقه؟ وهل له خالق واحد؟ ولماذا يوجد الشر؟ ولماذا بهذا الحجم؟ ولماذا الفقر والجهل والمرض والحروب؟ وما العقل وما حدوده؟ وما القلب وما دوره؟ وما الروح؟ وهل لها وجود خارج المادة؟ وما الجمال وكيف نقيسه؟ وكل ظواهر الوجود؛ السماء، والأرض، والرعد، البرق، والشجر، والحجر، والنار، والهواء، والحياة، والموت، والوادي، والجبل... إلخ، كلها تطرح نفسها على الإنسان باحثة عن الإجابة، آلاف من الأسئلة، كلما اقتُرحت إجابة تولدت آلاف الأسئلة الجديدة.

أتذكر وأنا صغير، ربما في التاسعة من العمر، كنت أسير

مع والدي في السوق، أُمسك بخنصره خوف الضياع، أرقب المحلات والباعة والمشترين، وتقع عيني على الفقراء والمتسولين من مختلف الأعمار، وهم يفترشون قارعة الطريق يَمُدون أيديهم بصمت للمارة، وبينهم الأطفال والعجائز وكبار السن، يُلقي لهم البعض ما تجود به أنفسهم ويعبُر أغلب الناس غير عابئين. تظلّ صورهم تطاردني حين أعود إلى البيت، وأتساءل: كيف يقبل المجتمع لبشر أن يكون في هذا الوضع ولا يحرك ساكناً؟! سؤال حائر بقي عالقاً في الذهن عبر مراحل العمر المختلفة، ولا يزال. تشكّل، تغيّر، خفت، ثم عاد إلى الظهور، وهو ما حرّك في نفسي دافع القراءة منذ كنت صغيراً، وتطوّر بعدها في صورة أسئلة الحياة والوجود، والظلم والعدل، والخير والشر، والكون والمعنى... والله.

رحلة صاعدة لا تنتهي

لا يستطيع عاقل أن يزعم أنه وصل إلى النهايات في التساؤل وفي توليد الإجابات الذاتية، ولكن ها أنا، وأنا أقارب الستين، أُدوِّن ما اختمر في ذهني خلال ثمانٍ وخمسين سنة انقضت، وأسأل الله حسن الخاتمة في ما بقي.

حين نُولد لا نُخيّر في أي البيئات نُولد، نحن نتشرّب مفاهيم البيئة التي ولدنا فيها، والبيئة التي وُلدتُ فيها بيئة مسلمة بسيطة، وهكذا قُدّر لي أن أبدأ الرحلة، رحلة لم تبدأ بأي ضغوط للتدين سوى أن المجتمع يمارس التدين بشكله البسيط التعبدي والسلوكي من دون أي تعقيد. عبرت في سلم القراءة من الكتب البسيطة التي تتوفر في الأسواق للأطفال، إلى الكتب

العميقة بشكل سريع. ففي الإعدادية ـ المرحلة المتوسطة من الدراسة ـ كنا نقرأ للكُتّاب القوميين الناصريين ولليسار، ولم نكن نستوعب كل ما يُقال، ولكن كانت المفردات تكبر والاستنتاجات تتولد، رسالة واحدة كانت تصل بقوة: «الأمة في خطر، هناك الاستعمار الغربي، وهناك الصهيونية، لا بد من التحرك لوقف الخطر القادم».

كبُرنا وجاءت نكسة ١٩٦٧، أو على الأقل هكذا سُمّيت حينها، وأُضيف إلى المشهد الكتاب الإسلامي الذي بدأ يقول إن هزائمنا نتجت من الابتعاد عن الإسلام فانخرطنا في قراءته، وصلنا سيد قطب و**المعالم**، وسيد سابق وفقه **السُّنَّة**، ومحمد الغزالي وأفكاره الثورية الإسلامية، وتدفق السيل. . . الإسلام هو الحل، بدأت رحلة قراءة الفكر الإسلامي ثم التراث الإسلامي بعيون هؤلاء الكتاب وأمثالهم من قادة الفكر الإسلامي.

لم يكن طرحاً عاماً بل طرحاً موجهاً، خلاصته: أنْ لا سبيل إلى مواجهة كل التحديات إلا باعتماد الإسلام، والتنظيم وسيلة للمواجهة. ها نحن أمام فكرة الإسلام، ووجوب الانخراط في تنظيم لمواجهة الواقع أمر منطقي في حينها، فكل شيء معه أدلته من الكتاب والسُّنَّة، وكل تفسير للكتاب والسُّنَّة في أذهاننا حينها هو عين الكتاب والسُّنَّة من دون تمييز وفصل.

مع القرآن

لقد بدأت علاقتنا بالقرآن علاقة غير مفهومة في المدرسة، فمطلوب منا الحفظ والتجويد والتفسير للمفردات، والمدرسون متفاوتون في اقترابهم من فكرة أن القرآن ليس مادة مُجرّدة كبقية

الكتب؛ فالبعض القليل كان يعتبر حصة الدين هي حصة دعوة حقيقية، والبعض الآخر يقوم بها بشكل آلي، وتلك القلة الدعوية كانت تنحت في نفوسنا معنى للقرآن مختلفاً. لا أنسى أستاذنا في الصف الخامس الابتدائي (الأستاذ عبد الحليم) من السودان، فقد كانت حصته من أجمل الحصص؛ إذ كان يستخدم القصص القرآني ويوظّفه لتوصيل المفاهيم ولو باستخدام قدر من اللغة الشعبية. كنا نترقّبه لنخرج من رتابة التسميع والتجويد... كبُرنا وبدأنا نسمع المحاضرات والأشرطة تشرح القرآن بذائقة «إخوانية» تُركّز على الجانب الحركي، أو بذائقة «سلفية» تُركّز على المأثور وعلى الأحكام، أو بذائقة «تبليغية» تُركّز على الرقائق والعبادات، كنا نزداد تشبعاً بأفهام هؤلاء الدعاة للقرآن، ونستبطنها ونرددها باعتبارها تمثيلاً للقرآن لا تفسيراً وفهماً إنسانياً له.

وجاءت لحظة اللقاء بسيد قطب في تفسيره المشهور في **ظلال القرآن** في سن الثامنة عشرة، لحظة مهمة من حيث التوقيت العمري، ومع كاتب ومفكر وأديب استطاع أن يحوّل فهمه إلى قطعة ملتهبة من المعاني، وأن يصوغ تجربته الخاصة ليحوّلها إلى نظرية تعيد إنتاج كل الماضي في لغة مُعاصرة، أو تعود بالعصر إلى لغة الماضي؛ فالجاهلية التي يصفها القرآن هي الجاهلية المعاصرة، والناس وإن صلّت وإن صامت فهي في جاهلية وإن انتشرت المساجد، ولا عبرة بكل المتدينين والمسلمين، بل لا بد من إعادة إنتاج صنف خاص من المؤمنين (جيل قرآني فريد) يتلقى مفاهيمه من القرآن وحده، ويبدأ بالأسلوب ذاته الذي بدأ به الرسول (ﷺ) ومن معه، يقرأ الآيات آية آية ويُطبقها، ويُواجه الجاهلية المُحيطة به، وهو في

معيشته بينهم يجب أن يمارس العُزلة الشعورية عن المجتمع الجاهلي. وتضخّم مفهوم الولاء والبراء حتى ابتلع كل شيء، باعتباره صُلب الدين والتطبيق الحقيقي لـ«لا إله إلا الله».

أنشأ سيّد فضاءه وعالمه الخاصّيْن ونقلنا معه إلى عالمه، كانت كلماته تنحت في العقول بمعاول صلبة، تصورات عن العالم وعن الذات، فنحن والإسلام ضحايا وعلينا المواجهة، وهي تقتضي المُفاصلة حتى مع أقرب المُقربين. وقد تطرّف البعض في حمل هذه الأفكار، وخرجت جماعات التكفير، وتوسّط البعض في الفهم، واعترض البعض على هذا الفهم، ولكن كتابات سيد بقيت علامةً فاصلة في الوعي. ومضى الزمن وبدأنا نقرأ في العلوم الشرعية، ونلتقي بشيوخ العلم، محاولين أن نفهم أكثر، ومع دراسة اللغة والأصول والعقائد وعلوم الحديث، تكونت لغة تسمح بالتواصل الأعمق مع النص المُقدس التراثي، ولا بد من الانتقال إلى العمل، وما العمل؟

الحل في الانتماء إلى الجماعات الإسلامية واللقاء بالسلفية وحضور مجالسها، والانتماء إلى جماعة التبليغ وحضور دروسها، وإلى الإخوان المسلمين فهي جماعة لديها نظام وتراتبية محددة وكُتب للمُدارسة، وتاريخ طويل في العمل المُنظّم. بدأت قراءة كل شيء بعيون الحركة؛ فكانت السيرة النبوية هي المَعين وقصص المرحلة السرية في الدعوة لتقعيد فكرة السرية، وفكرة دار الأرقم لتقعيد فكرة المدارسة الخاصة والتربوية، وفكرة حلقة بنت الخطاب مع زوجها لمدارسة القرآن لتقعيد فكرة الأُسَر، وفكرة الفرس والروم لتقريب فكرة الروس والأمريكان، وفكرة عذابات مكة لتفسير عذابات الحاضر، وفكرة أبي لهب لمن

يواجه الدعوة، وفكرة دار الندوة لمواجهة فكرة النُخبة، وفكرة الأصنام لفكرة الزعماء، وكان كل شيء يأخذ مكانه في وعينا مرتبطاً بفكرة أخرى، وأي تماهٍ سطحي يصبح حقيقة، ولا يهم حينها التدقيق في صحة الربط أو صحة الروايات.

وانتشرت كتب الفقه الحركي حتى طغت على تعلّم العلوم، فهي سهلة الهضم لأنها قصص، وهي تصلح للخواطر وللدروس، وهي أكثر جاذبية وألصق بالعمل اليومي.

ومع الوقت والاستدعاء تصبح فكرة الجماعة المسلمة التي تمثل الإسلام - في اللاوعي - هي عين الجماعة الأولى، ومرشدها وبيعته هي عين بيعة الإمام المُمكّن، والخروج عليها في اللاشعور هو قرين الخروج من دائرة الحق إلى الباطل، وفي هذه المرحلة كل القرآن يُفسّر في ضوء تلك العلاقة الوطيدة بين احتياجات الجماعة وبين ما يمكن أن يُفسّر به النص.

تطوّرت الأمور، وبدأت مرحلة جديدة للاقتراب من النص من خلال عيون أخرى؛ فبدأ الاقتراب من النص عبر منهج الشيخ محمد الغزالي، وهو بدوره حاول أن يوجد الخط الناظم لكل سورة من سور القرآن وموضوع السورة، وكَتبَ «المحاور الخمسة في القرآن»، ثم جاء سعيد حوى ليضع الأساس في تفسير القرآن، وحاول أن يُنظّم القرآن في خط واحد من أوله إلى آخره.

وبدأ الانتقال من فضاء التفسيرات الحركية إلى فضاء ما هو عام للمسلمين، ومع مقاربات أشكال التفسير الموضوعي للقرآن،

مثل: الاعتناء بلفظة معينة وتتبعها في القرآن، ومحاولة التعرّف إلى أوجه استخدامها للخلوص بنتائج عن الموضوع، أو تتبع موضوع مُعيّن والتنسيق بين الآيات لرسم صورة تُزيل التعارضات وتكشف عن جوهر الموضوع المُعيّن، كل ذلك قاد إلى العودة إلى الجذور، وهو كتاب التفسير التحليلي، وهو أول أشكال التفسير الإسلامي للقرآن؛ فمن ابن كثير **وتفسير الجلالين**، إلى غيرها، **الصغير والكبير**، بدأت رحلة اكتشاف الجذور التفسيرية الأولى، هنا سترى فضاءً واسعاً من الآيات، وكل آية تُفسّر في الغالب على حدة. والمُفسر ـ إن اجتهد ـ يحاول أن يُضيف إليها أسباب النزول أو أن يستطرد في لغة أو يستنبط فقهاً أو يشير إلى معنى لغوي جمالي أو يُزيل اشتباهاً، ولم يكن التذرر وافتقاد الترابط وحدهما هما المشكلة، وإنما وعي المُفسّر وعصره مؤثران في التفسير، وبالتالي تجد نفسك أمام آياتٍ آفاقها ضخمة، وتفسير سقفه محدود. وهو ليس عيباً في المُفسّر، فكل من يقترب من القرآن سيعاني الآفة نفسها، فالنص مطلق والوعي محدود. ولكن فقط هناك مشكلة في القارئ المعاصر، وهي أن وعيه بالأمور أصبح مختلفاً، ودرجة تقبله مختلفة، وبالتالي ذلك ما عانيته، فمع كل آية فيها معنى عظيم لقصر منيف، كنت أُصدم بتفسير يُحوّلها إلى كوخ صغير!

في هذه الرحلة اكتشفت أنني سرت بطريقة عكسية، وربما ليس كل إنسان له رحلة مماثلة لرحلتي مع القرآن، فمعظم الناس يبدأ من التفسير التحليلي التقليدي ثم يصعد إلى بقية المستويات، إنما تلك بداية الرحلة معي على الأقل.

رحلة خاصة

بدأت سنوات العمر تمضي، وجاءني سؤال مُحيّر من ابني في أحد الرمضانات: بأي تفسير تنصح؟ أريد كتاب تفسير؟ وقعت في حيرة من أمري، فبِمَ يمكن أن تنصح شاباً في العشرينيات؟ ومن أين يبدأ مع القرآن؟ وأيّ وجهة يتخذ حتى يحصل على أفضل العوائد؟ نصحته بتفسير مُعيّن، ولكن بقي في ذهني السؤال.

تسلسلت في ذهني رحلة طويلة لمحاولة فهم القرآن، قصصت عليك جزءاً منها في ما سبق، ولكن هذا الجزء هو الأهم، فبعد قراءة ما قاله المفسرون عن القرآن تساءلت: ماذا يقول لي القرآن؟ وماذا أقول له؟ تلك هي العلاقة الأساس التي يجب أن تنتهي بها الرحلة. هكذا خطر لي، أنا والقرآن، علاقة مباشرة. لست أنا هنا إلا العقل والوجدان، تحدٍّ كبير أن أُزيل السواتر والكثبان الرملية، ومئات الشخصيات، وآلاف الروايات، وأن أتلقى الرسالة! الرسالة التي تُطالبني بالتدبّر والتعقّل والنظر. هي تعرض كل الآيات على العقل للتفكّر، وتُطالبه بأن يُعيد النظر، المرّة تلو الأخرى، ويتفكّر بشكل فردي أو جماعي:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

كيف يمكن أن أسير مع هذه الرحلة الخاصة؟ كيف أُعالج تحدياتها؟ لقد كانت الرحلات السابقة مع القرآن تتمّ بعيون

الآخر/المُفسّر، ولكن هذه المرّة كيف يمكن أن أسير أنا؟ أتحرك مع القرآن منفرداً، كمسافر قد يتوقف للسؤال عن الطريق، ولكنها رحلته هو لا رحلة غيره، مصيره هو لا مصير غيره، مسؤوليته هو لا مسؤولية غيره!

مسافر ورحلة وغاية وزاد

المُسافر هنا هو العقل والوجدان، والرحلة هي سيرٌ بين الآيات بمعناها الواسع، والغاية هي الوصول إلى الحقيقة القرآنية، والزاد هو ما جمعته عبر السنين من معرفة بالقرآن وبالحياة.

ولكن كيف يحيط المحدود بالمطلق؟ وكيف يستطيع العقل أن يقترب مما يفوق عالم الحواس؟ ومن يستطيع أن يصل إلى الحقيقة؟ وما الضمان أنها الحقيقة؟ كلّها أسئلة مشروعة ترِدُ على العقل، ولكن ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل سوى أن يستفرغ جهده وأن يصل من الحقيقة إلى القدر الذي تسير به راحلته؟ فلا تكليف إلا بمقدور، ومطلب التدبّر يطاردنا وهو تكليف التكاليف، حسبي إذاً أن أستفرغ الجهد في التدبر، هذا ما اقتنعت به. إنها ليست فلسفة التعقيد بل التبسيط، فالرسالة بين يدي وأريد أن أفهمها وأن أعيها، وأنا مدرك لحدودي، والله معي حبيبٌ وقريبٌ، فلا خوف من الترحال، فهو الطالب وهو الضامن، هكذا بدا كل شيء.

ما قبل بسم الله الرحمن الرحيم؟

سؤال الإيمان هو أول الأسئلة، والقرآن خاطب أساساً قوماً

لهم نصف إيمان إن صح القول، وفي ذلك يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ولكن المُختل عندهم هو علاقتهم بهذا الإله، وذلك ما ركّز عليه القرآن مع عرب الجزيرة، والقرآن استخدم دليل الخلق والتصميم والقصد لإثبات وجود الخالق وصفاته.

وبما أنني نشأت في بيئة مسلمة، لم يكن هناك كبير عناء في تقبل فكرة الإيمان، ودليل التصميم والغاية، وهو برهان يقول: إننا نرى أن كل شيء حولنا يخدم غرضاً، وكل شيء له وظيفة، وكل شيء يترابط مع غيره في سلسلة الحياة؛ فالعين آلة مصممة لأداء الوظيفة. وكل جزء فيها يؤدّي وظيفة محددة، ومجموع الوظائف تتكامل ليتم الإبصار، ومما نعرفه في الحياة أن أيّ آلة دقيقة لا بد لها من صانع، بما هو معروف للعقل بالانتقال من السبب إلى المُسبّب، فكذلك شأن هذا الكون، لو انتقلنا من السبب وهو الكون إلى المُسبب وهو تلك القوة التي أوجدته، لكان انتقالاً منطقياً سلساً. ولا يضر بعد ذلك اعتراض شخص بنظرية النشوء والارتقاء، باعتبارها خطأً بديلاً عن وجود الإله يُفسّر سبب الوجود، فهي أيضاً لو صحت لاحتاجت إلى مُوجد يضع فيها هذا الإعجاز.

بقي أن نسأل: لِمَ لا يكون هناك عدد من الآلهة اتفقوا وخلقوا هذا الكون؟ وأُجيب عن ذلك: إن هؤلاء الآلهة لو اتفقوا في كل شيء من تفصيلات الكون لكانوا واحداً، ولو اختلفوا في الأمر فانتصرت إرادة أحدهم لكان هو الإله الحق، ولو لم يترجح الأمر لأيّ منهم لعمّ الفساد الكون، وبما أنّ الكون لم يفسد فالعقل يقول إنه إله واحد لا إله إلا هو.

فإن شهدنا بوجود الإله، فالعقل ينسب إليه ابتداءً صفات القدرة والإرادة؛ فبهما أُطلق الكون من العدم، وما في الكون يقول لنا إن خالقه متصف بالعلم المحيط بحكم هذا الكون الهائل المُنظّم الذي يحيط بنا، وبالحكمة التي جعلت كل شيء في مكانه. وإلى هنا لم أهتم لمزيد من الاستدلال، وإن كنت قد قرأت الاعتراضات، فقد كان ذلك كافياً لي أنا.

وقرأت عن مشكلة الشر فلم أجدها مشكلة كبرى، فهنا القائلون بها يقولون متسائلين: لِمَ يوجد الفقر والجهل، والمرض، والحروب، والفيضانات، ومختلف الآلام التي تفوق قدرة البشر، وبإمكان الإله المعتني أن يُزيلها، وبإمكانه أن يجعلها أخف؟ لم كل ذلك؟ قلت: هذا اعتراض وجيه، ولكنْ له حلّان؛ **الأول**: أننا سلّمنا بحكمة الإله وعلمه بالعقل، وسلّمنا بقصور علمنا كما سيأتي، فلا معنى لأن نناقش ما سلّمنا به سابقاً، فحين قلنا إنه حكيم، لم نقل معها إننا مشتركون معه في علمه وحكمته بل جعلنا علمه وحكمته فوق علمنا وحكمتنا بما لا يقارن. **والثاني**: أن مفهوم الإله يأتي معه مفهوم اليوم الآخر؛ فنحن لا نرى إلا جزءاً يسيراً من حياة هذا الكائن الإنسان، وصيرورة الكون، فكما أن سلسلة الحياة تمتد في الماضي إلى فضاء لا ندرك نهاياته بعقولنا، فهي ماضية إلى المستقبل في الاتجاه ذاته. وهذا الشريط الطويل نحن لا نرى منه سوى قطعة قصيرة لا تسمح بالقيام باستنتاجات عن كل القصة، ثم إنّ مفهوم الإيمان يتضمن فكرة اليوم الآخر أو يوم الحساب، وهو يوم العدل المُطلق والموازين المتناهية الدقة، فلا خوف من الظلم أو القصور.

لم تكن هناك عندي ابتداءً، مشكلة في قبول فكرة الإيمان؛

فقد بدت متسقة مع عقلي ومشاعري، وجاء أوان السؤال الكبير: كيف نعرف صدق الرسول (ﷺ)؟ وأنا أعلم أن الرواية الشفهية علمياً هي أضعف أشكال الأدلة عند المُؤرخين، فالخبر الذي لم يُدوَّن في لحظته، ولا توجد وثيقته الأولى، واعتمد على رواية المُشافهة، لا يصمد أمام الحجاج العقلي. فكم من قصة تاريخية، حقيقتها شيء، ومع التداول تغيّرت تفصيلاتها وصورتها! ومهما افترضنا المصداقية عند فرد، فنحن لا نأمن عليه السهو والغفلة والخطأ، بل وحتى رواية الأشياء من وحي الحب أو التعصب والهوى، وكلّها آفات تكاد لا تسلم منها نفس بشر، هنا منطقة اشتباك كُبرى دارت رحاها بين ما تعلمته وبين ما يقوله العقل، وبعيداً عن نقاش دقة علوم الحديث وعلوم الجرح والتعديل والمُصنّفات المُختلفة، وجدت أنني لا أستطيع أن أركن إلا إلى الوثيقة الأصلية للرسالة السماوية، لمعرفة الرسول (ﷺ) والرسالة على قدم سواء. وعزمت النظر في غيرها كمُكمّلٍ للمشهد، وللوعي بالأصل، وتابع له. والوثيقة الأصلية (القرآن) فيها أفكار كبرى عن العدل والحرية والمساواة بين البشر وعن العلم والتعلم، ليست وليدة بيئة الجزيرة ولا الروم ولا الفرس؛ إذ حينها لم تكن كتب اليونان قد ترجمت بعد، فمن أين لشخص أن يأتي بها؟ ولو فرضنا فيه العبقرية النظرية فشواهدها لا تنتظر سن الأربعين حتى تنفجر فجأة، فلم أجد صعوبة في قبول صحة نبوة الرسول (ﷺ) وصحة الرسالة.

أسئلة الاقتراب

هل أسماء الآيات توقيفية؟ هل ترتيب السور توقيفي؟ ما هو ترتيب نزول الآيات منذ البعثة؟ هل أسباب النزول متوفرة

ووافية؟ هل هو مُكتفٍ بذاته؛ بحيث تفسّر مصطلحاته من داخله؟ وبصيغة أخرى: هل له قاموسه الخاص أو أنه مفتوح على احتمالات اللغة العربية؟ أنعتبر اللغة شكلاً أم أداة اتصال؟ وما تأثير ذلك؟ وما علاقة بيئة الجزيرة العربية بالنص القرآني؟ وكيف للنص القرآني أن يتجاوز المُخاطبين في تلك البيئة ليمسّ الإنسان في كل مكان وزمان؟ ثم هبْ أن المصادر متوافرة، إلى أي مدى يمكن أن نثق في مصداقيتها؟ ثم ما علاقتها بمسيرة الإنسان على وجه الأرض، وفي تلك اللحظة التاريخية التي تنزل فيها الوحي؟

كل سؤال من هذه الأسئلة كفيل بإحباط المشروع، ولكن من عزم السفر صادقاً سيقول: كلا إنّ معي ربي سيهدين. كنت قد درست علوم القرآن، وتاريخ الجزيرة، وتاريخ العالم، وتاريخ الأفكار، في مراحل الشباب، وأعلم أنها تقود إلى تساؤلات كثيرة ستمنعني من مواصلة القراءة في الكتاب ذاته، فلم تكن رحلتي للتعرف إلى ما يحيط به، ولكن غرضي الرحلة فيه ومعه. حسناً، أنا أحتاج فقط إلى إشارة سريعة إلى بعض ما خطر في بالي بشأنها، سأسردها كما يسرد المرشد السياحي بعض الأمور المهمة قبل الانتقال إلى الرحلة ذاتها، أو كتعليمات قبطان الطائرة قبل الإقلاع. وعذري أنها على أهميتها يجب أن لا تحول دون القيام بالرحلة ذاتها.

علوم القرآن

قبل الرحلة، ربما نحتاج إلى معلومات أولية عن كتابنا العزيز، وهو القرآن الكريم.

تُخبرنا عُلوم القرآن ببعض المعلومات المهمة، وسنحاول أن نسير مع الشيخ منّاع القطان في كتابه **مباحث في علوم القرآن** لنتعرف إلى جوانب تخصّ القرآن ـ ولو بإيجاز ـ كما سيشرحها لنا، يقول: «كان صلوات الله عليه وسلامه يبلغه (أي: القرآن) لصحابته ـ وهم عرب خُلّص ـ فيفهمونه بسليقتهم، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات، سألوا رسول الله (ﷺ) عنها»[1].

قلت: ومن أين لنا مثلهم بعد غيبة الرسول (ﷺ) وضعف السليقة العربية وتقادم العهد؟ لكنّ هاتفاً هتف بي: الله عليم بالحال، وما كان ليكلفنا التدّبر والنظر لو كان ذلك سيقف حائلاً حقيقياً دون الفهم! وفي يومنا طرق الوصول إلى المعرفة ميسورة، وعند طرف الإصبع، فالخوف من النقص أقل.

ويتبع الشيخ برواية صححها أحمد شاكر عن أبي عبد الرحمن السلمي، خلاصتها: أنّ بعض الصحابة كانوا يتعلّمون الآيات العشر ولا يُجاوزونها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. ويتبع شارحاً: ربما كان سبب عدم توفر كل تلك الثروة التي أُخذت عن النبي مباشرة لنا اليوم، بقوله: «ولم يأذن لهم رسول الله (ﷺ) بكتابة شيء عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره»[2].

قلت: ولنا أن نعجب من التعليل؛ لأنه كان بالإمكان أن يخصص أناساً بأعيانهم لمهمة كتابة هذا الأمر المهم، يُميّزون

---

(١) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط ٣ ([د. م.]: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠)، ص٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٦.

عن كُتّاب الوحي أو أن يكتبوا ذلك بعد ختم القرآن وجمعه في عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان ـ وقد ذكر الكاتب أنه أحد الذين ورد ذكرهم في الحديث السابق ـ أو في عهد علي رضي الله عن الجميع ـ ولكن الخلاصة أن ذلك لم يتم، بغضّ النظر عن السبب.

جُمع الناس على مصحف عثمان (ﷺ)، ثم ضبط أبو الأسود الدؤلي قواعد النحو بطلب من علي ـ كرم الله وجهه ـ فتوفر بهذا عِلْمان: عِلْم رسم القرآن، بفعل عثمان، وعلم إعراب القرآن بفعل علي (ﷺ).

فماذا حدث بعدها؟ يتابع الشيخ: «استمر الصحابة يتناقلون معاني القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم، لتفاوت قدرتهم على الفهم، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله (ﷺ)، وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين»[3].. هنا كلام في غاية الأهمية يُكمّل الكلام السابق؛ فالكاتب يخبرنا بأن الصحابة لم يدوّنوا، وإنما تناقلوا المعاني مشافهة، وتناقلوا تفسير بعض الآيات، وليس الكل أو الأغلب! بالإضافة إلى ما هو معروف من تفاوت قدرات الناس على الفهم، وتفاوت زمن الصحبة والملازمة. وهكذا تناقل عنهم تلاميذهم من التابعين، وبالتالي فإن ما تم تناقله بينهم في هذه الطبقات قليل، وخاضع لظروف القصور البشري؛ منها قصور في قدرات الفهم والحفظ والتدقيق، ثم يتابع: «وقد كثرت الرواية في التفسير عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب. وما روي عنهم لا

(٣) المصدر نفسه، ص٧.

يتضمن تفسيراً كاملاً للقرآن، وإنما يقتصر على معاني بعض الآيات»[٤]. وكما ترى، فحتى هؤلاء المُكثرين من الرواية لم يوافونا إلا بتفسير بعض الآيات، وهو ما يُفسّر قوله بعدها: «أمّا التابعون، فاشتهر منهم جماعة، أخذوا عن الصحابة، واجتهدوا في تفسير بعض الآيات». هكذا، ستتعدد الاجتهادات البشرية للنص المُقدس بحسب قدرات البشر ووعيهم، تلك هي الخلاصة الأولى.

- **ولنا أن نثبت بعض المُعطيات المهمة في هذه المرحلة:**

١ ـ تم اعتماد الوثيقة القرآنية التي بين أيدينا في عهد عثمان (رضي الله عنه) وحضور الجيل الأول.

٢ ـ تم اعتماد تقعيد اللغة العربية لضبط التعامل مع القرآن بأمر من علي (رضي الله عنه).

٣ ـ لم يصلنا إلا القليل من التفسير المباشر من الرسول (ﷺ) لآيات الكتاب.

٤ ـ النقول عن تلك الفترة الذهبية نقول شفهية وقليلة.

٥ ـ قدرات النقلة متفاوتة بسبب عناصر متعلقة بأفهامهم وقدراتهم.

٦ ـ التابعون بعد جيل الصحابة فسّروا بعض الآيات اجتهاداً منهم.

نتابع مع الشيخ القطان: «وجاء عصر التدوين في القرن

(٤) المصدر نفسه، ص٧.

الثاني، وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة، وشمل ذلك ما يتعلق بالتفاسير، وجمع بعض العلماء ما رُوي من تفسير القرآن، ولم يصلنا من تفاسيرهم شيء مكتوب سوى مخطوطة تفسير عبد الرزاق بن همام (٢١١ هجري)»[٥].

فكل شيء بدأ بالمشافهة، ثم تمّ الانتقال إلى التدوين وكان التفسير باباً من أبواب الحديث، ثم انفرد التفسير بمدوّنات خاصة، و«وضعوا تفسيراً متكاملاً للقرآن وفق ترتيب آياته، واشتهر منهم ابن جرير الطبري المُتوفى سنة (٣١٠ هجرية)»[٦].

وبدأت كتابات متصلة بالتفسير تأخذ حظها من التناول؛ علي بن المديني (ت. ٢٣٤هـ) يكتب في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت. ٢٢٤هـ) يكتب في الناسخ والمنسوخ، وابن قتيبة (ت. ٢٧٦هـ) يكتب في مُشكل القرآن. وتوالت الأبحاث في غريب القرآن وإعجازه وإعرابه وأمثاله والقراءات وأقسام القرآن ثم جاء وقت الجمع؛ فيظهر علي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي (ت. ٤٣٠هـ) ليضع كتاباً جامعاً هو **البرهان في علوم القرآن**، وتستمر المدونات في علوم القرآن حتى يضع السيوطي (ت. ٩١١هـ) كتابه الشهير **الإتقان في علوم القرآن**، ثم تلاه الكثير من المعاصرين، مُدخلين أسئلة العصر الحديث وطابعه، كالزرقاني، والرافعي، وسيد قطب، والمراغي ودراز... إلخ.

هنا سنُسجل الملاحظات الآتية:

---

(٥) المصدر نفسه، ص٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٨.

- برزت الحاجة إلى معرفة سياق النزول (مناسبات النزول).

- برزت الحاجة إلى معرفة الناسخ والمنسوخ.

- برزت الحاجة إلى معرفة ما يبدو ظاهراً أنه (مُشكل القرآن).

وحين نعود إلى أسئلتنا الأولى في عجالة:

- **كم عدد حُفّاظ القرآن كاملاً في عهد الرسول (ﷺ)؟**

البخاري بمجموع رواياته يقول إنهم سبعة حُفّاظ: عبد الله بن مسعود، وسالم بن عقيل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد قيس بن السكن، وأبو الدرداء.

- **ما معايير الجمع والحفظ ومراحلها؟**

بدأ تدوين القرآن في عهد الرسول (ﷺ) مع الحفظ، وكان الرسول (ﷺ) يقرؤه للصحابة ويراجعه معهم، وبما أنه كان ينزل منجّماً، فقد كان كلما نزلت آية، أمر بوضعها في مكان من القرآن يحدّده، ولم يأمر بجمع كل ذلك في مكان واحد. وفي عهد أبي بكر (رضي الله عنه) - بمشورة من عمر (رضي الله عنه) - بدأ جمع كل ذلك في مكان واحد. ولقد قام بالجمع زيد بن ثابت، وهو من الحفظة، واعتمد على ما هو مكتوب، ومقارنته بالمحفوظ، ودُوِّن القرآن بالحروف السبعة التي نزل بها، كما كان لعلي وابن مسعود - مثلاً - نسخهما الخاصة، التي - ربما - لم تكن بمستوى الضبط عند زيد بن ثابت، وجاء عثمان بعدها وجمع

كل النسخ وأحرقها، وأبقى القراءة بلهجة قريش، وأصبح مصحف عثمان هو المصحف الأمّ الذي نقرأ به الآن.

• ترتيب النزول ومناسباته

لم تحتفظ لنا المدونة التاريخية بسجل دقيق متكامل؛ لا لتتابع النزول، ولا لمناسبات النزول.

• هل ترتيب الآيات والسور توقيفي؟

المستقر أن ترتيب الآيات توقيفي، والراجح أن ترتيب السور توقيفي أيضاً.

• ما هي الأحرف السبعة؟

صحت الروايات أن القرآن نزل بسبعة أحرف، وهي غير القراءات السبع المعروفة لدينا. ولكن لا يعرف أحد على وجه اليقين ما هي هذه السبعة أحرف، قال ابن حبان: «اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً» ورفعها السيوطي إلى أربعين قولاً.

• كيف ننظر إلى لغة الكتاب؟

اللغة هي الوعاء الذي تنزّل به الوحي أو هي الظرف الذي تختفي فيه الرسالة؛ إذ لا نستطيع قراءة الرسالة قبل أن نفك ظرفها. والرسالة، أننظر إليها من الناحية الشكلية النحوية أم ننظر إليها باعتبارها أداة اتصال، فيها المرسل وكفاءته كمفردات وثقافة، وفيها المُستَقبِل وكفاءته كمفردات وثقافة، أم سننظر إلى الاعتبارين على أساس أن لكل منهما دوره في الوعي بالرسالة وصحة قراءتها؟ وهذا الوجه الأخير هو ما أختاره لنفسي في هذه المرحلة من التفكير.

• هل للقرآن قاموسه الخاص في الاستخدام اللغوي؟ وهل لنا التوسّع بحسب اللغة؟

عبر التاريخ، اعتمد المُفسّرون على اللغة بسعتها كأداة للتفسير، ولا يمنع هذا من حصر المصطلح القرآني والاستفادة منه في الترجيح حتى لا نُضيق واسعاً، وهو الاختيار الذي سآخذه معي في هذه الرحلة.

• كيف لنصٍّ تنزّل في بيئة محدودة وزمن محدود أن يتجاوزها إلى غيرها زماناً ومكاناً؟

حين نُؤمن بأن القرآن وحي إلهي، وليس خطاباً أرضياً، فإنما نؤمن بأنه متعالٍ عن الزمان والمكان. وذلك بَدَهي للمؤمنين، ولكن يبقى سؤال للاكتشاف، وهو: كيف سيعبر النص من المحدود إلى المطلق الزماني والمكاني؟

• ماذا سنفعل - مثلاً - عند تعارض النص القرآني مع الحديث الصحيح، إن وجد؟

في هذه الرحلة لن يعلو شيء على النص القرآني، فهو مستقر لا يحتاج سنده إلى إثبات، ولا يتطرق الشك إلى مصدره، أمّا غيره، فظنيّ وإن دخل كقيمة مضافة للشرح والبيان. وهو ما سأعتمده في هذه الرحلة إن شاء الله.

القرآن ومحاولة الفهم (التوجه التجريدي)

هناك طرق كثيرة للاقتراب من القرآن، والتفاسير كثيرة. وما سنحاوله هنا هو الاقتراب من المناطق التي استوقفتني في أثناء الرحلة، على أن أتجنّب تكرار حديث المُفسّرين؛ إذ يمكن الرجوع إليه في مظانّه. كما سأتجنب تكرار شرح المعنى نفسه

مرتين ما لم تكن هناك إضافة تغني الرحلة؛ فالقرآن أحياناً يعالج الفكرة نفسها من زوايا مختلفة بسبب اختلاف الأنفس، ولكن المضمون واحد، وهدف هذه الرحلة الأساس هو رؤية المعالم التي استوقفتني.

فالسؤال الكبير الذي سنرتحل معه ليس تفصيلات المعنى كما هو مدوّن في كتب التفسير، ففيها ما يغني، ولكن سنسير مع المفاهيم الكبرى التي يُحيل إليها النص، مع الأفكار الكبرى التي تتجاوز الزمان والمكان، للنظر في ما يخص عصرنا.

الباب الثاني

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة

مركزية سورة الفاتحة

- **لماذا نقرؤها في كل ركعة؟**

رحلتنا مع القرآن تبدأ بسؤال بسيط: لماذا نحتاج إلى التدبّر في القرآن؟ وليس من الصعب القول إنه رسالة من الخالق إلى المخلوق، وفيها مضمون مُختزن يحدد للإنسان سبيل النجاة. وبتعرّف الإنسان إلى المسار المطلوب يضمن النجاة. إنه دليل السفر الذي يُخبره عن محطة الدنيا، وعن محطة الآخرة، ويشرح له العلاقة بينهما، إنه يجيبه عن أهمّ الأسئلة التي تعنيه في رحلته.

وفاتحة الكتاب هي دليل الأدلة لهذا الكتاب؛ هي أم الكتاب، وهي السبع المثاني[١]، ومن لم يقرأ بها في صَلاتِه، فصلاته خداج (فاسدة/ناقصة). والفاتحة بعد زيارتنا لها ستظهر كخطاب تأسيسي للفعل الإنساني، وهو ما يُفسّر الاحتفاء بها في كل صلاة، وسنبحث في مفاتيحها السبعة:

(١) السبع المثاني: الفاتحة سبع آيات. ومعنى المثاني هنا أي إنه تتكرر فيها المواعظ والعبر. وقيل إن السبع المثاني هي السبع الطوال من السور.

١ ـ مفتاح المنظور الشامل.

٢ ـ مفتاح المفهوم الكوني.

٣ ـ مفتاح مركزية الرحمة.

٤ ـ مفتاح مركزية الحساب.

٥ ـ مفتاح مركزية العمل.

٦ ـ مفتاح الصراط المستقيم.

٧ ـ مفتاح أهمية المثال.

الترحال مع الفاتحة

• منظور شامل

ما المنظور الشامل؟ إنه باختصار تفسير العالم، فالإنسان ـ كما تبحث آثاره (علوم الإنسان)، وكما ترسم له صورة مبنية على ما وصل إليه علم الآثار التي تقول لنا إن أقدم الآثار البشرية عمرها ٥٠,٠٠٠ سنة وأن هذا المخلوق (نياندرتال) ـ قد عرف الدين من وقت مبكر، فموتاه كانوا يُدفنون في وضع الجنين، ومعه أدوات، مما يعني تصوراً ما عن البعث وعن العالم الآخر (في بعض الأقوال).

ولم تخلُ أيّ مجتمعات بشرية من كليات الثقافة، وهي الدين واللغة والفن، فهي عوامل مشتركة في أيّ مجتمع بشري. ومع تطور اللغة والإنسان في سُلّم الحضارة، سيظهر الدين المُنظّم، بمعنى وجود المفردات الدالة على قوى الغيب. وستُخصّص أيام العبادات وأماكن إقامتها، وستُنظّم الشعائر، وهو

ما ظهر في بلاد الرافدين منذ ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد، وهذا ما ترويه كتب الجغرافيا البشرية، وللدين روايته التي سنعرفها من القرآن.

إذاً، قصة الإنسان مع تفسير العالم هي قصة وجوده، وبها تميّز عن الحيوان، فهو الكائن الوحيد فيما نعرف على وجه الأرض المُتفكر في الوجود وفي ذاته، وهو الكائن الذي يُريد أن يعرف وأن يُفسّر الحياة والموت والظواهر من حوله.

هو مخلوق لا يقنع بمجرد العيش، ولكنه يتفكّر في غايته ومعناه، وحتى حينما يُلحد؛ فإنه يتخذ خياراً أمام سؤال الوجود، فهو ليس خلاء منه، لأنه لا يستطيع أن يعيش من دون أن يتخذ موقفاً.

البسملة وسؤال الوجود

• ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [١]

ماذا تعني بسم الله الرحمن الرحيم بالنسبة إلى سؤال الوجود؟

يلتقي الإنسان العاقل المُتيقّظ بالكون فيجد نفسه محاطاً بالأسئلة، من أين جاء هذا الوجود؟ وإلى أين يمضي؟ أيفنى الوجود أم يتجدّد؟ ويسأل نفسه: لِمَ وجدتُ؟ وإلى أين أمضي ككائن في هذا الوجود؟ ألِوجودي معنىً، أم هو قدر زائد عن الحاجة؟ أخَلَقَ الوجود نفسه أم له خالق صنعه؟ ما جوهر هذا الوجود؟

آلاف الأسئلة التي تطوف بعقله، وسورة الفاتحة ترسم الخطوط العريضة لأعمق الإجابات.

والمنظور الشامل هو الأساس الذي تنطلق منه إجابة الأسئلة الكبرى، وهو ما يُؤسس لبقية قضايا الاعتقاد والشعائر والأخلاق والسلوك والقوانين والنُظم.

نحن في أغلب الأحيان نعبُر على البسملة عبوراً سريعاً، ونُريد أن نصل إلى الآيات، نُريد أن نقرأ القرآن وفي وعينا أن البسملة مجرد كلمات نتمتمها ونمضي، وهي نمط من التدين وبداية خطابة لا بد منها. وحين يتناولها النحويون، يخبروننا أنها عبارة تحتاج إلى ما يكمّلها؛ فهي إما «ببسم الله الرحمن الرحيم أبدأ»، أو «ابتدائي ببسم الله الرحمن الرحيم». وهي إمّا مفعول به للفعل أبدأ، أو خبر لمبتدأ.. شيء متعلق بالنحو. ولكن حين ننظر في العمق ونتجاوز الشكل، نكتشف أننا نتحدث عن منظور كوني عميق، نظرة إلى الحياة تلامس أعمق أسئلتها عن الكون والوجود. إنها تتكلم عن نقطة البدء، عن خبر الأخبار، والإقرار به هو إقرار بذلك الوجود المُتسامي (الله، وهو إقرار بأننا ـ ونحن ننظر في آيات الكون ـ نعرف أن وراءها يداً حانية رحيمة مُعتنية أوجدتها.

في سورة الفاتحة، نجد أن البسملة جزء من السورة، وذلك مُتسق مع أول سورة في القرآن وافتتاحيته؛ فالبسملة كما قلنا ليست شيئاً للفصل والتميز بين السور فقط، بل هي روح القرآن ومنظوره الكوني والشامل، هي مدخل نظرية المعرفة الإسلامية، وما يُفرق بينها وبين سائر النظريات المحيطة، ففي حين يقرأ عَالِم الطبيعة الملحد أو المُشكّك الكون غاضاً الطرف عن الغاية والمعنى؛ يقرؤه المؤمن في يقين كامل بحقيقة الوجود الإلهي ومظاهر رحمة الله.

يكتشف المسلم من الطبيعة أسرار الكون فيقول: سبحان خالقها، ويكتشف المُلحد الحقائق ذاتها فيقول: ما أعظم الصدف، فضاءان يقودان النفس البشرية في اتجاهين مختلفين، واحدٌ صاعد إلى الله والآخر إلى المجهول، إنها الاختيارات الكبرى للإنسان، تقود مصيره وأخلاقه وسلوكه. وعندما يعي ويتأمل فقط، يُدرك أسراراً لم يكن ليتعرف إليها حين يمر عابراً من دون توقف، كل شيء يبدأ باسم الله.. الكون، الحياة، العمل. ولكنه ليس أيّ إله، هو إلهٌ رحمته واسعة، وواصلة لخلقه. كل ذلك نستجمعه من أول لمسة في القرآن، وننظر ونتأمل كم يضيق الناس بالاختلاف! وكم تضج الحياة بالصراعات، التي مردها ضيق الإنسان بأخيه الإنسان! فإلى أي مدى نستمد مفهوم الرحمة بكل الخلق اليوم كمسلمين؟ أتغيّر القرآن أم ساء فهمنا له؟

بسم الله الرحمن الرحيم، هي مدخل المعرفة الإسلامية وجوهرها، ها نحن نقول بصورة واضحة أن بسم الله الرحمن الرحيم هي نقيض قراءة الكون باسم الصدفة. هناك من يقول إن الكون وُجد عبر مجموعة من الصُدف، فما معنى الصدفة هنا؟ هبْ أن حروف الأبجدية وُجدت على طاولة ووقع زلزال فتساقطت الحروف، فمن المُحتمل أن تجتمع ثلاثة حروف لتُكوّن كلمة ذات معنى، ومن المُحتمل أن تتكون كلمتان، فالعقل لا يحيل ذلك، ولكن لو قال لك شخص إن قصيدة من ألف بيت في موضوع واحد وقافية واحدة انتظمت نتيجة الحدث لقال العقل: مستحيل. والكون هو مليارات القصائد المنتظمة من الذرة إلى المجرة في ترابط وتناغم، لا يملك العقل المُتدبّر إلا أن يؤمن بوجود خالق صفّ هذه الحروف ونسّقها، فلو أن

الصُدفة كانت رجلاً أعمى أُعطي ألف سهم وطُلب أن يُطلقها على هدف، فأصاب مرّة، فالعقل عندها سيقول: تلك صُدفة؛ لكن لو أصاب ألفاً لقال العقل: مُستحيل أن يحدث ذلك، فالصدفة أضعف من أن تقف لتفسير النظام والترابط. هكذا أيضاً، فبسم الله الرحمن الرحيم هي نقيض لقراءة الكون باسم الخالق الذي خلق وترك الكون من دون عناية، وهي نقيض قراءة الكون في ظل الجهل الذي تتساوى فيه احتمالات وجود الخالق من عدمه، وهي نقيض الخرافة كما في الميثولوجيا اليونانية وأساطيرها، وكلها قراءات قائمة في كل العصور.

وبسم الله الرحمن الرحيم حين تربط وجود الخالق بالرحمة الواسعة والرحمة الواصلة لكل الخلق، تُعطينا المفتاح للعلم والحياة، تُعطينا مفتاح العلم بالغيب المحجوب، وروح النظر إلى العالم الطبيعي، فالكون المحجوب نحن نُدركه من تأمل الكون المشهود. وبسم الله الرحمن الرحيم تقول لنا بوجود خالق رحمن رحيم بدأ به الوجود، عرفناه من مخلوقاته، وهي في الوقت ذاته تجعل الكون المنظور ليس فقط أداة لفك شيفرة الطبيعة وتسخيرها، بل لمزيد من المعرفة بدقة الخلق وعظيم الصنعة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وهي من زاوية ثالثة تُعطينا مفتاح الأخلاق التي نتعامل بها مع الكون المشهود ومفرداته، ويا له من معنى حين ننتبه إليه ونستوعبه.

إن تسامي الحضارة الإنسانية لهذا المعنى الكوني التأسيسي، هو مفتاح صلاح الأرض، ووقف إفسادها من قبل الجاحد بالله، والمؤمن الذي ساء فهمه لروح الدين وجوهره على قدم سواء، وحضارة الرحمة التي تنتظرها البشرية تختزنها البسملة.

إن البسملة ببساطة تُزود المؤمن بتصور عن إله محدّد، فهو الخالق الذي بدأ به كل شيء، وهو المُعتني بخلقه على الدوام. وهي في الوقت ذاته تُسقط مفهوم الصُدفة، ومفهوم الإله الذي خلق وترك، ومفهوم عدم الترجيح (اللاأدرية).

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

مفهوم كوني، مركزه الرحمة، وتأثيره في الوجدان والسلوك:

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [٢ - ٣]

لماذا «رب العالمين»؟ ولماذا التشديد على «الرحمن الرحيم»؟

حين نُجيب عن سؤال المنظور الشامل، سنبحث عن مركز الثقل في هذه العلاقة عن القاعدة الكبرى التي ترتكز عليها هذه العلاقة.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

هو ليس ربَّ مخلوقٍ دون مخلوق، أو بشر دون بشر

ها نحن في تأكيد بعد تأكيد، بأن الله أعلم بنفسه وبما هو أهل له من الثناء. يُشير إلى وجه الثناء الأعظم، وهو أنه - جل وعلا - رب العالمين. و«العالمون» هُم كل ما سوى الله (ﷻ) من مخلوقات سُمّيت بالعالمين، لأنها أعلمتنا بوجود الخالق؛ فالله ليس ربَّ مخلوقٍ دون مخلوق، ولا بشر دون بشر. هو ليس رب الإنسان فحسب، وليس رب الحجر فقط، ولا رب المسلم دون الكافر، هو رب كل شيء. والقرآن يبدأ بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وينتهي بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

درس بليغ لمن ضاق ذرعاً بغيره من المخلوقات؛ فربها الله وهي في رحمته. والرحمن صيغة امتلاء، أي: كله رحمة، والرحيم صيغة فاعل، أي: من يوصل الرحمة إلى غيره، والله واسع الرحمة، ورحمته واصلة إلى كل خلقه، فماذا عندنا يشغب على هذا المفهوم التكويني الأول في القرآن، ويجعل المسلم منكفئاً على ذاته، بعيداً عن أن يكون رحمة للعالمين؟!

حين نفهم معنى سعة الرحمة ونفهم معنى توصيل الرحمة إلى العالمين، نكون قد أعدنا إلى الدين رونقه، واستخلصناه من سوء الأفهام التي علقت به، رب العالمين ورحمة للعالمين هي مفتاح الحياة الإنسانية الراقية، ومن دونها لا عودة إلى الحضارة؛ فمن ضاقت نفسه عن رحمة الخلق، فليس أهلاً لرعاية العالمين ورعاية الكون، المحفوظ بالرحمة والمُسيّر بها. والأمة التي تستوعب مفهوم الرحمة، وروحها في وعي أفرادها وفي ممارساتهم مع كل خلق الله، هي المؤهلة لقيادة مشروع: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فادّعاء الأفضلية ليس مجرد دعوى، بل هو وعي بالقرآن وتخلّق به، وسلوك خارجي دالّ عليه.

لننظر في عمق أفكارنا كمؤمنين، كم تمكّن هذا المفهوم منا؟ وكم هو لصيق بمشاعرنا؟ وكم هو بارز في سلوكنا تجاه الخلق، كل الخلق؟ فإن لم نجد، فلنبحث عمّا شغب على مفهوم الرحمة من مفاهيم وتفسيرات ورؤى، فهو في القرآن واضح المعالم بيّن القسمات، وهكذا استقبلنا القرآن في لحظة لقائنا به ومصافحتنا له: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهكذا يجب أن نكون.

فلا معنى للقيم المجردة التي لم تتحول إلى معنى فلسفي عميق، ولا معنى للعمق الفلسفي ما لم يتحول إلى مبدأ للعيش، ولا قيمة لمبدأ ما لم يتحول إلى إجراءات على الأرض.

الرحمة هي المعيار الحقيقي لفهم دور الدين في صلاح الإنسان، لأنها متصلة مباشرة بوقف الفساد ووقف سفك الدماء. ويا لها من مهمة كبرى تنتظر من يُقدّم لها النموذج، ويُعيد إلى البشرية سر إنسانيتها ووجودها في الكون.

وصناعة إنسان الرحمة المهداة هو التحدي الذي يطرح نفسه على المسلمين اليوم؛ فالحضارة البشرية تقدمت في كل المجالات، ولكنها عجزت عن إيجاد هذا الإنسان، الذي ما زالت فكرته جنيناً حتى في الحضارة الإسلامية أو بقاياها اليوم!

- **يوم الدين وضبط السلوك الدنيوي**

كيف إذا لم ينتج الإيمان باليوم الآخر الإحسان في عمل الدنيا؟

- **مركزية الحساب والميزان والعدل**

ها نحن وجهاً لوجه مع أهم مفاهيم الدين، ومربط الفرس في زرع الفاعلية، وهو مفهوم يوم الدين.

- ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [٤]

لماذا مفهوم «يوم الدين» بعد مفهومي «رب العالمين» «الرحمن الرحيم»؟

١ ـ مفهوم العدل.

٢ ـ مفهوم الإحسان.

٣ ـ مفهوم المسؤولية.

٤ ـ مفهوم الاستقلال.

مفهوم يوم الدين هو مفهوم الفاعلية القصوى؛ أي قيام الإنسان بالواجب والإتقان الأقصى والشعور بالمسؤولية عن الفعل، وإدراك الاستقلال عن عقلية القطيع... كل ذلك رهين بمفهوم يوم الدين.

مالك يوم الدين أو ملك يوم الدين، هو اختصار لرحلة الإنسان، إنه يوم تسوية الحسابات حين ننظر إلى الحياة نرى الظالم والمظلوم، والصحيح والمريض، والتعيس والهانئ، والأمراض، والفيضانات، والزلازل، وفراق الأحبة، ونرى الموت يطوي المخلوقات... شُرور تُحيط بالإنسان، ويتساءل العقل: أين الإنصاف؟ أين الرحمة؟ أين العدل؟

إن العقل المؤمن يُقرّ بحكمة الخالق من دون عناء، بما يراه من تدبير دقيق في الكون. ولكن العقل المؤمن ـ كسائر العقول ـ تُحيّره صور الفقر، والجهل، والمرض، والحروب، والويلات التي تُحيط بالإنسان، وهنا يأتي مفهوم اليوم الآخر، وفكرة الحساب، أو بتعبير القرآن في أول سورهِ: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ يوم تسوية الحساب، كشرط ضروري لتكامل مفهوم العدل في النفس الإنسانية، فلن يخرج أحد من صيرورة الحيوات إلا وقد استوفى كمال العدل: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. هو ضرورة للعدل، كما هو ضرورة قصوى لمفهوم المسؤولية: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]؛ فكل عمل الإنسان داخل في دفاتر الحساب المُنظمة، وهي بنظامها الدقيق تعطي الإنسان

أفضل الفرص للفوز، وتُقيم عليه الحجة. فكل حسنة يقوم بها بعشرة أمثالها، إلى ما يشاء الله، وكل سيئة بمثلها لا أكثر، وتمحى بالتوبة. ولا تتوقف عملية المسح للسيئات، فبين الوضوء والوضوء، وبين الصلاة والصلاة، وبين الجمعة والجمعة، وبين الحجة والحجة، وبين العمرة والعمرة، وبين الاستغفار والاستغفار، تُمحى السيئات، وذلك كمال الرحمة المُتعلقة بدفاتر الحساب. ثم انتظار ذلك اليوم وعظمته، وعظم عواقبه، يطرح في النفس الإنسانية مفهوم المراقبة الذاتية. ومن رباعية: العدل الإلهي الكامل، والرحمة الإلهية في الحساب، والمسؤولية الفردية عن العمل، والرقابة الذاتية الواعية، يبدأ الفهم الصحيح للدين.

إن مفهوم ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مفهوم عميق يعيد ترتيب العقل وتوازنه. هكذا يستقبلنا القرآن في أول سورة؛ ليزرع فينا جانبين متقابلين من المفاهيم: عدل الله الكامل، ورحمته في الحساب، ومسؤولية الإنسان، ورقابته الذاتية لذاته وسلوكه. فعلى ضفاف القرآن نسأل أنفسنا: كم وعينا بعمق هذه الصورة وأبعادها؟ وما تأثير غياب هذا الوعي في علاقاتنا بالله وبالكون من حولنا؟ وأي أثر أخلاقي تتركه غيبة الوعي بالقرآن في سلوكنا وحياتنا ووجودنا كأمة.

- ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ العبادة عمل قاصد يصنع الحياة.
- **مركزية العمل القاصد**

لقد ذكرنا ضلعي المثلث، وهما الخالق الرحيم، ويوم الدين. وبقي الضلع الثالث، وهو الإنسان، والعمل القاصد أو العبادة.

• ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٥]

• **هل تشوّه مفهوم العبادة عندنا؟**

دائما نصطدم بسؤال مُحيّر: لماذا تجيد الأمم الأخرى الإتقان، فتصنع وتزرع وتُنظم... إلخ، ونجد أنفسنا عالة عليها، في عصرنا الحديث على الأقل؟ ونعبر عن السؤال بإجابات تتعلق بظواهر الأشياء؛ كتغير النظام التعليمي أو إنشاء المصانع، ولا نغوص إلى السبب العميق، وهو بنية الوعي المسلم المرتبط بالقرآن، ففي بنية الوعي القرآني، مهمة الإنسان العبادة، وجوهرها إعمار الكون باسم الله وبملئه بذكر الله وبالعمل الصالح، ذلك هو معنى العبادة، إنها عملة ذات وجهين: ذكر لله، وعمل مُتقن.

أما في بنية العقل المسلم، فالذي يُشاهد هو انفصام عروة العبادة الصِرفة وعبادة إعمار الكون.

في التفاسير نجد أنفسنا أمام تفسير حرفي يقول إن المعنى «إياك نعبد» محبة، (يا أيها الخالق الرحيم بخلقه، خضوعنا لك خضوع تذلل ومحبة)، فأنت وحدك المستحق للعبادة، ومنك وحدك نستمد العون والفهم والتوجيه. ولكن في ضوء مثل هذا الكلام الحرفي يختفي المعنى العميق؛ فكلمة نعبد يتلقاها العقل المسلم المخدر في ضوء مفهوم تقزّم عبر مئات السنين، فلم يبق إلا ظله؛ إذ بسبب تكرار ربط العبادة بوجه من وجوهها وهو الشعائر، كالصلاة والصيام والحج والزكاة وما هو من جنسها، لم يعد المعنى الكلي والعميق حاضراً يُشكّل الحياة. فالعبادة بمفهومها الشامل هي اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. وحين يختفي المعنى

الحقيقي للعبادة الشاملة الممتدة لكل الحياة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]؛ يختفي النشاط في المصنع وفي المزرعة وفي المتجر وفي الجامعة وفي مركز البحث... أو ينفصل عن تلك الصلة العميقة التي أمر القرآن بها.

إن غياب المسلمين اليوم عن صناعة الحياة مردُّه إلى تقزّم المفاهيم الكبرى في القرآن، وأولها: مفهوم العبادة. والتي تقوم بمهمة تقزيمها آلاف المنابر والكتب التي حصرتها في دائرة ضيقة، وضربت لها أمثلة محصورة، فثبّتت ـ عبر أجيالٍ ـ معنى ضيقاً لأكبر المفاهيم الإسلامية غنى وحجماً.

فكلّما ذكرت العبادة، ضُربت لها أمثلة ببعض أجزائها، وقُلّصت مساحتها في الحياة حتى حُشرت في المسجد أو الحرم. وتركت صناعة إعمار الأرض، ووقف إفسادها، لبقية البشر من أمم الأرض، أولئك الذين ارتقى عندهم مفهوم العمل حتى أصبحت الجودة عنواناً لأعمالهم، فحصلوا على السبق في صناعة الحياة، وتراجعنا في سباق الأمم، بل ولم نعد قادرين على نفع أنفسنا أو مضرة عدونا، فنحن قد أخْلَينا الحياة من معناها ومن فعل الإنسان فيها، عبر تقزيم المفهوم وحشره في زاوية ضيقة، وحصاره فيها. فعلْنا ذلك بطريقة أو بأخرى ولم ندرك خطورة المفهوم، وما يترتب عليه من آثار كبرى؛ لأن المسلم بعدها لم يعد يرى أن الصناعة والزراعة والكشف العلمي هي وجوه للعبادة الشاملة، وهي في قلب إصلاح الكون ووقف الفساد. إن عقله يترجم كلمة عبادة بطريقة لا تسمح له بأن

يشارك بكامل طاقته في صناعة التقدم، واليوم، في لحظتنا الحاضرة، تريد الأمة الخروج من مأزقها الحضاري. وما لم يستعد معنى العبادة قيمته في وعينا وفي خطابنا، فلا أمل في التقدم والحياة الطيبة التي يريدها البشر في الدارين.

والعبادة عمل متجه من الإنسان إلى الله قصداً، وإن كان الله غنياً عنه، والإنسان هو المستفيد منه. والإنسان ذلك المخلوق المُتفكر الذي يُحيط به كون مترامي الأطراف، يسبح في عالم الأسباب المادية، يُخطّط ويُنفّذ، ينجح ويفشل، يستعد للأحداث وتفاجئه الأحداث، وتقع على عاتقة مهمة إعمار الكون ووقف الفساد، ويا لها من مهمة. وهو في ضعفه يسكنه خوف دفين من الفشل، ويحتاج إلى معينات ومُسكنات، يحتاج إلى إيمان يردم الفجوة بين مهمته وقدراته! وها هو موسى (عليه السلام) يكلّف باستنقاذ قومه من الطغيان، ويستشعر ذلك الضعف، فيطلب العون من خالقه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه: ٢٥ - ٣١]. قائمة طويلة من المطالب في وجه احتياجات القيام بالمهمة، والله يُرشد المؤمنين إلى أشكال من العون النفسي والمدد المعنوي: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالاستعانة موصلة بالعبادة القاصدة ترتبط بها، فكما أن العبادة هي مواجهة الحياة لإصلاحها استجابة لأمر الله، وهي بمعناها الشامل تنتظم جميع مناشط الحياة، فالعبء المُلقى على الإنسان كبير، وهو بحاجة إلى منتهى العون، ومن غير الله يتجه إليه العبد بطلب العون؟!

- **الصراط المستقيم عمل معرف**

مفهوم الصراط

أو مفهوم طريق العمل الصالح ومصاديقه

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [٦ ـ ٧].

كيف يعرف الإنسان طريق العبادة القاصدة الموصل إلى النجاة؟

لا يصعب على الإنسان تصور معنى طلب الهداية من ربّه إلى طريق النجاة، لكن لو قلنا إن الصراط المستقيم هو طريق العمل الصالح، والعقل المسلم يستقبل العمل الصالح مشوهاً، بسبب طبيعة التلقي عبر التلقين المستمر كما هو حاصل اليوم؛ وهو بالتالي يستدعي المفهوم في سياق أولئك النُسّاك العبّاد الذين هجروا الدنيا واكتفوا بوجه واحد من معادلة النجاح القرآنية، وهو وجه الذكر والتزكية الفردية؛ فذلك ما تستدعيه المنابر وخطب الوعظ من الدين وعن الدين، ولكن عندما نواصل القراءة، تُحَدِّثنا الفاتحة عن أن الصراط المستقيم هو طريق يُعرف بسالكيه، ومن دون التعرف إليهم وإلى مهامهم لن يمتلك الإنسان بوصلة صحيحة.

وبالتالي، لا بد من إسقاط الضوء على سالكي الصراط المستقيم، ليتم بناء تصوّر واضح لمفهوم الصراط المستقيم، ولا بد من تمثيل هذا الطريق ومن رؤية نماذج حية لأهله ومعالمه، ومن رؤية الذين أنعم الله عليهم في حركتهم لإعمار الأرض، وإحقاق الحق، فهم القدوات والنماذج، والقرآن ملآن

بصورهم؛ رجالاً ونساء، أنبياء وصالحين، وصدّيقين وشهداء، ولنلق نظرة على بعضهم لبيان المقصود، وننظر إلى الصورة من جانبين:

• **الجانب الأول**

وهو متعلق بأن هذه القدوات كلها آمنت بالله وباليوم الآخر، وارتبطت بالله بالعبادة الصِرفة من الذكر والصلاة وأمثالها.

• **الجانب الثاني**

وهو متعلق بمهمتها في المساهمة في إعمار الأرض، وصلاحها في شقها المادي، وهو الجانب الذي تقاصر في حياة المسلمين اليوم، حتى غدوا أقل الأمم إنتاجية وفاعلية في الأرض.

• **هكذا لزم أن نمثل لهذه النماذج:**

• آدم وحواء وحفظ النوع الإنساني.

• هابيل والامتناع عن سفك الدماء.

• نوح يبني السفينة.

• ذو القرنين يبني السدود.

• داوود يصنع السلاح والدروع.

• سليمان والحكم.

- يوسف والاقتصاد.
- موسى ومقاومة الطغيان.

صور كثيرة سنلتقيها في القرآن، لرجال ونساء توازنت عندهم الفكرة وتعددت مهامهم، فكان إعمار الآخرة يقتضي حسن العبادة الصِرفة، والقيام بواجب إعمار الأرض، ووقف سفك الدماء.

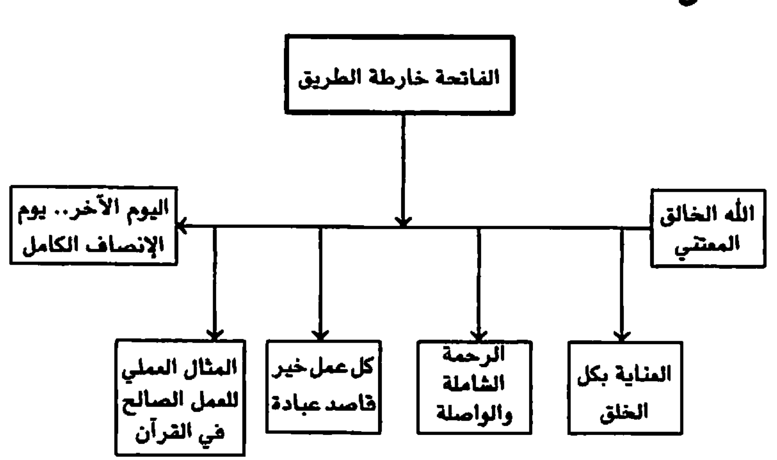
وبالتالي، وعبر هذا الفهم الشامل لمبادئ الإيمان وأُسسه، يتجنب الإنسان أمريْن في غاية الخطورة:

أولهما: طريق من جحد وأنكر الحق وهو عَالِم به مُستيقن لصحته، ولكن منعه الكِبر والهوى من التزام الحقيقة فاستحق أن يكون من «المغضوب عليهم».

وثانيهما: طريق من أبصر الحقيقة، ولكنه وقع في سُوء الفهم وسُوء التأويل، وهو بفهمه لسورة الفاتحة التي تختصر له الطريق، يأمن سُوء الفهم للدين واللحاق بـ «الضالين».

فالفاتحة وفهمها صمام الأمان للكِبر والعناد، وطريق مُختصر للفهم وحسن الإدراك. ونحن هنا لا نُسجل موقفاً من أناس بعينهم، ولكنّ القرآن مفتوح على الإنسان كل الإنسان، في تجربته الإيمانية. فهي بوابة الأمان لكل من يريد أن يتقي بالقرآن مآليْن يشملان كل البشر، هما: المغضوب عليهم والضالين.

ملخص



لنعبر الآن إلى سورة البقرة، والآية الثانية منها هي: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وقد بدت لي إجابة عن سورة الفاتحة التي نطلب من الله فيها: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وبالتالي سنحاول أن نبحث عن أسرار الهداية فيها.

الباب الثالث

سورة البقرة

الفصل الأول

الجولة الأولى
(تقسيم عام وفق فتح باب السؤال)

قدمت لنا الفاتحة خارطة عامة للقرآن، وتأتي سورة البقرة لتُضيف إلى الصورة مزيداً من الوضوح، فلنتابع لنكتشف محطاتها الكبرى.

إن سورة البقرة هي أطول سور القرآن، وهي تأتي عقب سورة الفاتحة التي يدعو المؤمنون فيها بأن تتنزل عليهم هداية السماء: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. وسورة البقرة بعد: ﴿الٓمٓ﴾ تجيب عن السؤال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وحين نتابع سورة البقرة ونبحث عن النسق، نجد أنها تحتوي على أربعة محاور متساندة:

- تقسيم عام (مؤمن وكافر ومنافق).
- قصة الوجود (الله، الملأ الأعلى، الإنسان، الكون).
- أمة سلفت (أهل الكتاب بنموذج اليهود).
- أمة تُولد (مجتمع الإسلام).

فالسورة تقدم تصوّرات كُبرى في غاية الأهمية لبناء النسق الفكري للإنسان، ولذلك سنستعرض تلك الأفكار الكُبرى.

رحلة سورة البقرة

- **الجولة الأولى (تقسيم عام)**

ما القسمة العقلية للعلاقة بالإيمان؟

ما الذي يحدث للإنسان حين يلتقي بالهداية والبيان؟

القرآن هنا يعرض لنا صوراً ثلاثاً... لمُؤمنين خُلّص، وكُفار خُلّص، ومُنافقين خُلّص. وسنتبين المعنى مع مواصلة الرحلة.

في هذه الجولة الأولى من آيات سورة البقرة، يُقدّم القرآن مجموعة من المفاهيم الكُبرى المُتعلقة بمواقف البشر من الدين، ومن مطالب الرحمن من البشر، وهي تأتي ككل آيات القرآن مُختلطة بالحدث والمكان والشخوص، مما يعطيها روحاً عملياً ممتداً عبر الزمن، أي إنها لا تُخاطب فقط عقل الإنسان، وإنما تغُوص لتلتحم بحواسه وخياله، وهي تعود إلى الحدث اليومي في المدينة أو مكة، لتحوّله إلى عبرة للإنسان، بشكل يجعل قراءة النص في كل مرّة مُتعة خاصة ومذاقاً خاصاً، وهو ما جعل القرآن لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه أو تنفد خزائنه.

والسورة تتفاعل مع أجواء المدينة المُنورة، وتُخاطب بشرَها، ثم تنقل المفاهيم إلى كل البشر، عبر الزمان والمكان.

• ﴿الٓمٓ﴾ [١]

افتح عقلك للسؤال!

يا أيها الإنسان المُنسحق تحت سُلطة القائم الذي يُقيّدك بالأفهام المغلوطة، والمُستسلم لسُلطة القديم الموروث، تطوف حولها، استيقظ، فيقظتك هي السبيل الوحيد لنجاتك.

لمّا كانت فواتح سورة البقرة هي تقسيم الإنسان إلى مؤمن وكافر ومنافق؛ وما الإنسان - في أصله - إلا عقل مفتوح للسؤال؛ فالبقرة تبدأ بلغز الحروف المُقطّعة: إن الإنسان أمام أُحْجية الكون، وهو أمام سؤال الإيمان وذلك يحتاج إلى العقل المُتسائل الباحث، ولا يحتاج إلى عقل بليد ساكن.

ها هو العقل يصطدم بأول لغز لا يجد المُفسّرون له حلاً، ولا تُوفر لنا المُدونة الحدِيثية شرحاً له. وسُيقدّم لنا المُفسّرون اقتراحات حول المعنى؛ إذ ربما المقصود به أن هذا القرآن من جنس هذه الحروف التي تعرفونها ولكنها تتحداكم أن تؤلفوا على منوالها، هي نوع من الإشارة إلى إعجاز القرآن للعرب؛ إذ إنه نزل بلسانهم، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يجاروه. حسناً، ذلك أمر مُحتمل، ويظل العقل بعدها يتفكّر ويبحث: هل هناك ما هو أبعد؟ هل تقول لنا الحروف إن الكون والخلق هما في الجوهر حروف مُنضّدة كما نرى في الجينات؟! هل تستثير فينا الفُضول المعرفي، وتُحرّضنا على التساؤل؟ لماذا في لحظة اللقاء الأولى في الفاتحة كان المنظور الشامل الذي يبدأ بـ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، هو أول اللقاءات بكلمة السماء، ثم تكون البداية هنا بالحروف المُقطعة؟!

بدا لي أنه في عُمق القرآن يوجد الحث على السؤال، وتتولد تلك الصلة بين عجز السائل المحدود الذي يجهل أكثر مما يعلم وبين المطلق الذي يحيط علمه بكل شيء. بدا لي القرآن لحظتها كتاب سؤال مفتوحاً على الآيات؛ آيات الكتاب المسطور في المصحف، والكتاب المنشور في الكون، وكتاب بحث عن حروفها الأولى وأسرارها، كتاب علم وبحث ونظر، أو هكذا حدث مع اللقاء بأول آيات سورة البقرة في هذه الرحلة.

● سنرى قوماً تساءلوا عما بين أيديهم ولم يقدّسوه، واستعملوا منافذ السمع والبصر والقلب الذكي، فدخلوا دائرة الإيمان.

● وسنرى قوماً أغلقوا باب السؤال، وسقطوا أسرى القديم ومن يمثلّه في الواقع، فسُدَّت منافذ المعرفة عليهم، فدخلوا دائرة الكفر.

● وسنرى قوماً تذبذبوا ولم يثبتوا على حال، فتحوّل ذلك إلى سلوك مُنحرف من الكذب، والخيانة، وإخلاف العهد، وعبّر القرآن عن ذلك بالنفاق.

ولنعبُر هذه النماذج الثلاثة من بوابة السؤال!

● حين نفتح منافذ السؤال

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من هو المؤمن الحق الذي يتغير به التاريخ؟

ماذا يحدث عندما يفتح الإنسان منافذ المعرفة؟

لماذا لا يحدث القرآن أثره ويُنتج الفاعلية في كل من يقرؤه اليوم.. وهم كُثر؟

إن الإيمان ابن السؤال البِكر، والإسلام عرض نفسه على مشركين وأهل كتاب، قوم لهم مُعتقداتهم التي نشؤوا عليها وواقعهم ومصالحهم، ناقشهم وعرض عليهم حقائق الدين؛ فمنهم من كان مستعداً لمساءلة منظوره الشامل فأنصت وفكّر وتأمل واختار الحق، ومنهم من لم يفعل.

فمن قرر أن يسائل منظوره الشامل أو موروثاته، وقارنها بما يطرحه عليه الدين من حُجج ورؤية، تبدأ رحلته في التفكّر في الدين، وهو بذلك التفكّر العميق يصل إلى عمق الدين، وهو ذلك الشعور العميق باليوم الآخر، وعندها يُصبح للدين فاعليته في أرض الواقع.

إذاً، هناك مسافة بين عمل العقل الواعي بطرح السؤال والنقاش وحصول اليقين الداعي إلى الخوف أو حالة التقوى، تلك الحالة التي تُؤهّل الإنسان للإفادة القصوى من مُعطيات الدين.

- ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [١ ـ ٢].
- **مثلث الهداية والكتاب والتقوى**

الكتاب والتقوى والهداية، ثلاثة أضلاع يقدّمها القرآن كوصفة سحرية لحياة الإنسان، ترى فيها المقدّمات والنتيجة، فالرحمن يقدّم الكتاب، والكتاب (القرآن) فيه البشارة والنذارة، وفيه القيم والمبادئ، وفيه الأمثلة، وفيه النماذج البشرية الحيّة التي تُمثّل المنهج، وفيه ذلك الطَرْق على الأوتار العميقة للنفس الإنسانية، هو كتاب مطروح لكل البشر يمكن أن يقرأه أي إنسان وكثيرين في مختلف أصقاع الأرض، والمسلمون يقرؤونه تديُّناً،

ولكن السؤال: لم لا تستقيم الأخلاق على الرغم من كثرة الحفّاظ وكثرة القراءة؟

هنا تأتي ضرورة القراءة العميقة، ذلك العمق الذي يتعدّى القراءة المُسطّحة للنص، ويصل إلى عمق الروح، فيغيّر كيمياءها، ويجعل مرآة النفس حساسة تجاه الأمر والنهي. ومن دون جلاء المرآة لا يُعطي الكتاب ثماره، ولا تحدث الهداية، ولا يتغير الواقع.

إن الدّين لا يُحدث أثره في السلوك ما لم تتوفر الحساسية تجاه اليوم الآخر، فتولد حالة التقوى.

وهي حركة في اتجاهين حركة في اتجاه الخالق (الإيمان والصلاة) وحركة في اتجاه الخلق (الإنفاق).

- **مثلث الإيمان والصلاة والإنفاق**

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٣].

إن علامة الوصول إلى التقوى تُترجم في حضور الغيب في الشعور، وتُترجم نفسها في الخارج لصلة موثوقة بالله (الصلاة) وصلة وثيقة بالخلق (الإنفاق).

- **الإيمان الحق يُترجم نفسه بإعمار الروح وإعمار الأرض**

الإيمان بالله واليوم الآخر هو الدافع إلى نوعين من العمل، نوع مُتعلق بصلة الخالق، ونوع مُتعلق بصلة أهل الأرض. ها هو الإيمان يُترجم نفسه في حركة متوازية على الأرض، حركة تصل الإنسان بالسماء وتصله في الوقت ذاته بإعمار الأرض.

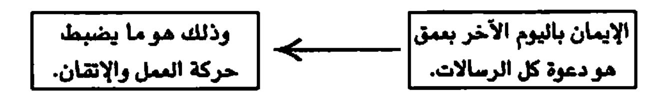
هكذا تترابط فكرة التقوى وتظهر، وتفصح عن جوهرها وفحواها، هي إذاً حالة تفاعل بين الإيمان بالله وباليوم الآخر، تنقل الإنسان من حيّز الفكرة إلى حركة تواصل مع الخالق، وحركة نفع للناس. ويا له من معنى غائب عن كثير من العقول، ها أنا أنظر إلى فكرة عميقة تترابط فيها أطراف القصة المتعلقة بمشروع الدين، كل الدين، ومُلخّصة في إشارات ثلاث: حركة عقل تُوفر له منظومة قناعات، وحركة قلب تصله بالله عابداً متبتلاً، وحركة في الواقع جوهرها نفع الناس. والسؤال الكبير: هل هذا المعنى يقود حركتنا اليومية؟ أهو حاضر بهذا الترابط على كثرة قراءة القرآن، أم أنه تذرر مثل الكثير من مفاهيمنا عن القرآن؟

إن المعنى المُختزن هنا ثقيل الحمولة، إنه بناء لمنظومة عقلية قلبية سلوكية كاملة، ونحن في محاضننا، حين تلقينا الدين، تلقينا العقيدة مفصولة عن العبادة، وكلتاهما مفصولتان عن حركة الحياة ونفع الإنسان؛ فالقرآن هنا لا يتكلم عن كسب المال، فالكل يفعل، ولكن عن الإنفاق من فضل الله، وكم لله من أفضال! فالله رزقنا الجهد والوقت والمهارات والمواهب المختلفة، والإنسان مسؤول عن مدى مساهمته في خدمة المجتمع والمحيط الإنساني، والإنفاق هنا مُراعى فيه أنه من رزق الله، إنها ليست حركة إحسان طارئ لإراحة الضمير، بل هي بناء متكامل تستقيم فيه الحياة بالإنفاق. مجتمع تنتقل فيه الأمور من حيّز الفكرة المجردة إلى حركة تواصل بالسماء، ومن حركة تواصل بالسماء إلى حركة نفع لمن في الأرض، إنها كدورة الطبيعة، تترابط فيها العناصر في شكل نظام، تلك طبيعة الدين كما بدت لي في خطاب القرآن.

• الرسالات وحساسية اليوم الآخر

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [٤].

• ثنائية الكتب السماوية وفكرة الآخرة



• في عمق الدين توجد فكرة اليوم الآخر

وكما ترابطت الفكرة بالصلة، بنفع البشر، في الآية السابقة، تترابط حركة الأنبياء، ورسالات السماء، بمشروع واحد يؤسس لفكرة واحدة جوهرية، هي مسؤولية الإنسان الفردية عن اختياراته، وهي مربوطة بوجود اليوم الآخر؛ فإن كان الإنسان محاسباً فحركته مرتبطة بثلاثية الإيمان بالغيب، وصلته بخالقه، ونفعه للناس، ذلك ما تتحدث عنه رسالات السماء. فمركزية اليوم الآخر هي الفارق الجوهري في حركة الإنسان في الأرض؛ فلو آمن بالله ثم لم يؤمن بالحساب لما كان هناك تأثير في حركته في الحياة، ولكان معنى وجود الإله معنى لا تحقق عملي له في حياة الناس، وجود مجرد، مجرد إقرار لا يقود إلى فعل.

ولكن اليوم الآخر مفهوم مركزي في قصة الإيمان، ومن دونه تفقد معناها وجوهرها، فكل هذه المفاهيم هي لضبط حركة الإنسان في الأرض، كلّها مصممة ليقوم بوظيفته في الأرض، ويحقق الظاهر من أهداف خلقه، وفي قلب هذه المفاهيم مفهوم اليوم الآخر الذي جاءت به الرسالات. وهكذا، تصبح قضية الإيمان ذات عائد مباشر على الإنسان وفاعليته في الكون، ودقته

في العمل وإحسانه له، وإحسانه مع الخلق كل الخلق.

• الفلاح ثمرة الفهم والوعي والعمل

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٥].

يقيمون الصلاة من جانب، ومن الجانب الآخر ينفق الإنسان من وقته وماله وجهده لصناعة الحياة... وبالمزج بين قوة الإيمان والصلاة والإنفاق تقوم النهضات.

• من زرع حصد

تلك ببساطة إذاً، هي أسرار الفلاح.

هكذا اكتملت الحلقة الأولى الشارحة لروح الدين وغايته، وتركّز معنى الترابط الدقيق بين:

الإيمان بالغيب (الله، اليوم الآخر، ...)، إقامة الصلاة، نفع الناس.

• حين نُغلق العقل أمام السؤال!

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

كفر العناد

ماذا لو أغلق الإنسان منافذ المعرفة؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٦ ـ ٧].

• موقف من الرسالة الخاتمة

صنف ثانٍ يبدأ من هذه الفقرة، لا يُطيل معه النص

الوقوف، بل يمر به سريعاً في آيتين حاسمتين؛ فالآية السادسة تقطع بأن هذا الصنف لا يُجدي معه نذير ولا ينفعه تبصير، توعّدته السماء بسد منافذ الخير عن عقله ووجدانه وسمعه وجعلت على عينه غشاوة، فينظر ولا يكاد يرى. مشهد مُرعب، فلماذا يستحق إنسان ما هذا المصير؟

والآية تبدأ بجماعة فعلوا فعل الكفر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، هم اختاروا الكفر اختياراً؛ يصفهم القرآن في بعض آياته فيقول: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]. وتدلنا المدونة التفسيرية على أن الآيات - كما يقول ابن عباس والكلبي - نزلت في رؤساء اليهود، ومنهم حيي ابن أخطب وكعب بن الأشرف، ولكنها في جوهرها حالة يجتمع فيها الكثير من البشر، جهالة التصرف والإصرار والاستكبار، ليست كفراً ينفع معه التنوير، وليس كفراً عاقلاً ترك صاحبه لنفسه فرصة الاستماع والتفكير، هي من طرفه اختيار حاد للكفر وسوء تصرف، هم قوم تلقاهم في الحياة وقد سيطرت عليهم الأوهام واستسلموا لسلطة القديم الذي درجوا عليه، وخضعوا لسلطة القائم ومنافعه من الكبراء والسادة والكهنة والسدنة، قوم اختاروا أن لا يعلموا ولا يعرفوا ولا يسألوا ولا يستبينوا ولا يستخدموا نعمة العقل ونعمة السمع والبصر، ولم يمتلكوا فضيلة التواضع، وافتراض الخطأ عندهم، إنهم يحملون عناد الدواب العجماء، وهي أفضل منهم لأنها لا تملك نعمة العقل وهم ملكوها فأهدروها، إنه خطاب للرسول (ﷺ) ولكل عاقل أن لا يضيع الوقت والجهد مع هؤلاء تحديداً، وإلّا فالدعوة ما جاءت إلا لقوم كافرين ابتداءً، ولكن هذا نوع خاص من الكفر لا

يجدي معه الخطاب، فكانت عقوبة الله من جنس اختيارهم، وهي في الوقت ذاته تنبيه لأهمية الجهد والوقت وأن يصرف في ما يرجى نفعه، أما من كانت تلك صفاته، فتركه غنيمة للوقت والجهد.

ولكن قائمة من لم يدخل الإسلام قد تطول، وليسوا من هذا الصنف فهناك:

١ ـ من اختار الكفر اختياراً، بعد قيام الحجة ووضوح البيان وانعدام المعارضة، ولكنه مع ذلك محسن في الدنيا.

٢ ـ من عرض عليه الدين مشوهاً، ورأى نموذجاً تطبيقياً مشوهاً فلم يدخل الإسلام.

٣ ـ من عرض عليه الدين فقرر أن يدرس ويبحث ويستبين.

٤ ـ من لم يصله الدين إلا سماعاً من بعيد، وهو منطوٍ على نفسه في بيئته.

٥ ـ من لم يصله الدين مطلقاً.

فالأول منهم لن يحرم الدنيا: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ [الإسراء: ٢٠].

والثاني لم تقم عليه الحجه فالأمر مشروط بالبيان: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

والثالث مخلص للحق باحث عنه وداخل في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والرابع والخامس أقرب لأهل الفترة، هؤلاء جميعاً واقعون في قول الله (ﷻ): ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولكن الآيات اقتصرت على صنف تبين له الحق وأعرض... فانتبه.

● **النفاق**

سندرس هنا ظاهرة النفاق باعتبارها مجالاً للتحذير، ونقول: مجالاً للتحذير الذاتي والانتباه؛ فالرسول (ﷺ) لم يُشهّر بهم بأعيانهم، ولم يُعلِم بهم إلا حذيفة بن اليمان، كما في الأثر، والقرآن حين يُشنّع على هؤلاء، يترك الخيار بأيديهم ليروا طريق الحق، وهو بذلك يُراعي فقه المآلات؛ فحين يكون القرار متعلقاً بوحدة المجتمع وتماسكه، ويؤثر سلباً في كليات المجتمع، يتحمل الضرر الأخف - وهو هنا عدم التسمية والتشهير - على فداحة الجرم، في مقابل شق الوحدة الظاهرة للمجتمع، وشيوع روح الفرقة، إنه فقه الواقع كما تحدث ابن القيم في كتابه **أعلام الموقعين**: عن وجوب معرفة الواقع ومعرفة الحكم في هذا الواقع، وهنا أفضل مثال على التطبيق الصارم لفقه الواقع.

«... والمنافقون هم الصنف الثالث بعد المؤمنين والكفار، صنف أقدامه وقلبه في معسكر الكفر، وظاهر خطابه في معسكر الإسلام».

يخدعون.. وما يشعرون

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٨ - ٩].

وما يشعرون!!

ها هو القرآن يجعل حالة النفاق مقرونة بحالة عدم الشعور ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، والشعور هنا لا يعني الإحساس أو تلك الخاصية التي ترتبط بالحيوانات كلها، بل هو حالة تتعلق بالإنسان العاقل، ترتبط بإدراك المرء لذاته وأفعاله وانفعالاته إدراكاً مباشراً أو هي الاطلاع على ما يجري في النفس أو هي الاطلاع المباشر على ما يجول في داخلنا من حالات شعورية، إنها إذاً إطلالة وتقويم لما يجري في الداخل الإنساني.

هنا إنسان يكذب ويُخادع ويُسوّغ لنفسه مثل ذلك، ولا يلفته السلوك الخاطئ لمراجعة الذات، إن تلك اللفتة القرآنية العظيمة تشير إلى واحد من أخطر الظواهر النفسية، تلك المرتبطة بالسلوك؛ فحين يعلم الإنسان بالسلوك الخاطئ الذي لا يقوم به الإنسان السوي، ولكنه مع ذلك لا يستطيع التوقف للنظر في داخل النفس والبحث العميق في الدوافع والمبررات والمآلات؛ عندها تتولد حالة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

• نفاق ومخادعة ومنظومة مشاعر مريضة

قوم تموت عندهم عملية الشعور بالخطأ وفداحة الجرم، وتتولد عندهم قدرة على التلّون، يُظهرون أمراً ويُخفون غيره، وهنا يخطر في البال سؤال كبير: كيف تتولد هذه الحالة؟

هنا قوم لديهم خليط من المعتقدات التي لا يريدون مفارقتها، ولديهم مصالح يخافون زوالها، ولديهم أهداف يسعون إليها، ويُواجهون بأن عنصر القوة ليس بأيديهم، وهم عاجزون

عن الاستمرار في مخططهم إلا بالنفاق. وللنفاق قصته في المدينة المنورة.

وفي الآيات تظهر أجواء المدينة المنورة في تلك اللحظة التاريخية بوضوح، فها هنا يبرز معسكر النفاق؛ ففي مكة كان هناك كفر بواح، وإيمان صراح، معسكران متواجهان، أما في المدينة فقد تغيّرت خارطة الصراع، فهنا معسكر الإسلام فيه المهاجرون والأنصار، وهناك اليهود، قوة تمتلك مشروعية دينية سابقة للإسلام، وبينهما تبرز بقايا الشرك العربي، وغيرهم ممن أعلن الإيمان ظاهراً، وهم معسكر أظهر الإسلام وأبطن الكفر.

ونظراً إلى شراسة ظاهرة النفاق وخطورتها على المجتمع الناشئ في المدينة، يُطيل القرآن النَفَس معها؛ هنا قوم يُظهرون خلاف ما يُبطنون، لم تستقر العقيدة في قلوبهم، ولم يستطيعوا لضعفها أن يقروا بحالهم، هم طلاب مصلحة، خطابهم وسلوكهم مزدوجان، هم للكفر أقرب، وخطرهم على المجتمع الجديد كبير، فهم بشكلهم وإعلانهم الإسلام يتغلغلون في المجتمع المسلم، ويعيشون بين ظهرانيه، وهم باستبطانهم الكفر أو بمصالحتهم مع معسكر الكفر يضربون أسس المجتمع الوليد وجبهته الداخلية.

ولكن ما هي حال المعسكر الوليد حينها، وما الذي يجعل هذه الظاهرة من الخطورة بمكان عليه؟ من التأمل في السيرة نعلم أن المجتمع المسلم لم تكن قد استقرت له الأمور في المدينة بكاملها، فما زال المعسكر اليهودي مُتربصاً بهذا المولود الجديد الذي انتزع الصدارة منهم في المدينة، وما زال أمثال عبد الله بن أُبي بن سلول ومن حوله مصدومين من تحوّل القيادة

عنهم، وما زالت العلاقات الاجتماعية بين كل فئات المجتمع في المدينة ممتدة، والتعاملات التجارية والروابط العائلية قائمة، وما زالت الأسواق والمجالس واحدة، وما زالت تركيبة المجتمع هشة بين جناحيْه المؤمنيْن: الأوس والخزرج، وهي قابلة للاشتعال، وما زالت الظروف الاقتصادية ضاغطة على المجتمع، والهجرة من خارجه متصاعدة، وما زالت قريش وحلفاؤها يتربصون بالمجتمع المسلم الدوائر. هذا الوضع الذي كان يمكن للإشاعة أن تنتشر فيه وتحرق الأخضر واليابس، وكان يمكن لمن يُسرّب الأخبار أن يُصيب المجتمع في مقتل، وكان يمكن لمن يريد أن يُوهن صف المجتمع الجديد أن يحقق مراده.

كل تلك العوامل جعلت ظاهرة النفاق التي سنتحدث عنها تُشكّل هماً كبيراً للخطاب القرآني، نظراً إلى تداعياتها عليه. ومع ذلك سنلحظ أنه على الرغم من شدة الخطاب القرآني في كشف الظاهرة ـ بل وتصل المدونة الحدِيثية للقول بأنهم معروفون بأسمائهم ـ لا نجد ما يقابل هذا الخطاب القوي على مستوى العقوبة المادية المباشرة. ولم تُسجَل لنا أحداث توازي هذا الخطاب الذي سنكتشف شدته في لاحق الآيات.

وبالتالي، فظاهرة النفاق هي وليدة بيئة محددة بظروفها، ولكن أخلاق النفاق (إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان) ـ وهي ظاهرة قد تولد في أي بيئة ـ أمّا تلك اللحظة التاريخية، فهنا نفاق اعتقادي صرف طبع حركة فريق من أهل المدينة.

فالخطر الكبير اليوم هو النفاق السلوكي:

- الكذب
- إخلاف الوعد
- خيانة الأمانة

إن الاجتماع والاقتصاد والسياسة في أي مجتمع قوامها الثقة، والثقة هي بنت الصدق وإنجاز الوعد والوفاء بالأمانات.

وحين يتساهل أي مجتمع مع هذه الظواهر فلا تقوم له صناعة ولا زراعة ولا تجارة ولا ينتج فيجيد، فتعاون البشر مرهون بهذه الصفات... فكيف يثق الحاكم بالمحكوم، والمحكوم بالحاكم، والزبون بالتاجر، والتاجر بالزبون، والعامل برب العمل، ورب العمل بالعامل؟ وكيف تقوم علاقات الرحم والجوار، لو غاب خلق الصدق وحفظ الوعد والعهد وحفظ الأمانات؟

فالنفاق حالة فيها تبلد شعور وعدم استشعار حركة التاريخ، وحقائق الموقف، حين تتعلق القضية بالقضايا المصيرية، وحين يكون الحق واضحاً والخير الذي يُدعى إليه الإنسان بيّناً، تدركه النفوس السوّية. حين تكون الدعوة لقوم بلغتهم رسالات السماء السابقة فعلموا صدق القائل وتوفرت دلائل الحق والحقيقة في حركته اليومية، حين يكون الحق واضحاً لا لبس فيه، كيف لا يشعر الإنسان بخطئه؟ شيء ما حينها يكون قد أصاب منظومة اتصاله بالواقع، فلم يعد يشعر بالحق، ولو كان أمامه بكل أنواره.

• **في قلوبهم مرض... اختلال آلة التدبر**

آلة التدبر

حين نغوص عميقاً في ذلك المزيج المُكّون من العقل والمشاعر، حين يتوقف عن أداء دوره، حين يختار الإنسان أن يُوقف تلك النعمة حتى يبقى في الضلالة؛ فلا غرو أن يُجازى بزيادة الغفلة والصدود.

• ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [١٠].

• **منظومة واحدة متصلة (وضوح الحق وتعطيل مصادر التلقي، ثم تعطيل العقل ثم المشاعر ثم سلوك متلوّن)**

يمكن تصور هذه الحالة مع كل متعصب لرأي اختاره من دون دليل أو تَفكّر، وهو غير قادر على التعبير عن رأيه بسبب رغبته في تحصيل مصالحه الخاصة، فيُظهر شيئاً ويُخفي شيئاً آخر، ولكن لننظر في الموضوع بسياقه المدني:

• **ما هو القلب الذي يتحدث عنه القرآن؟**

هناك ترابط بين العقل والقلب؛ فإن كان العقل مركز التدبير، فالقلب هو مركز المشاعر والعواطف. والإنسان كما أنه كائن عاقل، فإنه كائن عاطفي، بل هو كائن تحرّكه العاطفة، والعقل ضابط لها. وكل فكرة لا تحركها العاطفة هي فكرة ساكنة لا تتحول إلى سلوك، فكم من الأفكار الكبيرة لا يتحرك لها أصحابها ولا يتحمسون لها بسبب انصراف عواطفهم عنها. إذاً، القلب بهذا المعنى هو بوابة تصريف الأفكار وتحويلها إلى سلوك، وعبارة «مرض البوابة» لم أجد صعوبة في قبولها.

والقرآن هنا يؤكد حقيقة أخرى في غاية الأهمية، هي أنهم قوم اختاروا النفاق والكذب، والله عاقبهم بما اختاروه لأنفسهم، فزادهم منه ومد لهم فيه، وما الله بظلام للعبيد: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، والمظهر الخارجي للمرض هو استمراء الكذب، فالجزاء من جنس العمل، وهو معنى سيتكرر في كثير من الآيات والتنبيه عليه مهمّ في هذه اللحظة من الرحلة.

ها هو الخداع يأتي بملازمة الكذب، ملاحظة في غاية الأهمية؛ فإن كانت الحرب خدعة، وهي حالة خاصة متعلقة بتضليل العدو، فهذا شيء عاقل مفهوم؛ أمّا تفشي ظاهرة الخداع في المجتمعات واستسهالها، وهي ظاهرة استشرت حتى في بعض المجتمعات المسلمة، وأصابت كثيرين، نتيجة ظروف كثيرة، مثل: الظلم والقهر الذي ولّد سلوكاً مراوغاً لتحصيل الحقوق أو لدفع الأذى، ومع طول الزمن تحوّل إلى سلوك عام مُطّرد، يُمارس في كل الأحوال ومع الجميع، وأخطر ما فيه حين يغزو فضاء التدين، ويجد من يُؤصّل له باسم الدين، ويتحول بهذا المفهوم كل المجتمع إلى دار الكفر غير العادلة، والتي على المؤمن أن يتخفى فيها خوفاً على دينه، ويتحول هذا الوهم إلى طابع حياة ـ فذلك خطر كبير وضرر بالغ.

والآية تقول إن هناك تلازماً بين فكرة الخداع وفكرة الكذب، والمؤمنون غير مُحصَّنين منهما إن صحب الحالة تأويل مُتلبّس بالشرع. ولا غرابة في ذلك في عصر يجد المسلم فيه مليون تأويل لقتل المسلم، وغير المسلم المسالم، كما نشاهد في ظواهر الإرهاب الأعمى باسم الدين، فكيف بما هو أهون

مثل الخداع والكذب؟! ربما يتلبّس ذلك بدعوى مصلحة الدعوة، ونصرة الحق؛ وهو موضوع يجب الحذر من الانزلاق فيه بسبب تلبّسه بلباس صالح.

- **قانون الفساد وعالم الشعور**

وقف الإفساد في الأرض

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [١١ ـ ١٢].

- **علاقة الشعور والذوق بمفهوم الصلاح**

ها هو الفساد أو الانحراف عن السواء يرتبط بالشعور والذوق، والشعور هو من زاويةٍ إدراك للسواء، للجمال، للحسن والقبح، للمشاعر، ومن زاوية أخرى يحرك العقل، ولئن كانت مهمة الإنسان في الأرض هي إعمارها: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]؛ فالمنافقون ـ بفقدان الشعور بالجمال والقبح، بالصواب والخطأ ـ هم المقابل الموضوعي للصلاح الاجتماعي، هم أناس تعنيهم مصالحهم فقط، وفي سبيلها يمتنعون عن قول الحق وعن فعل الصواب، هم ظاهرة تتجاوز ما حدث في المدينة لتمس جوانب حياة الأمم كلها. وانظر إلى فضاء المجتمعات من حولك ترى مظاهر النفاق بدرجاتها المختلفة، ولئن كان النفاق الاعتقادي هو أخطرها، عند نشأة المجتمع المسلم الأول؛ فالرسول (ﷺ) مد رواق فكرة النفاق لتشمل النفاق السلوكي: «إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وهي ظاهرة تحيط بكل مسؤول من قمة الهرم الاجتماعي إلى قاعه.

مهمة الإصلاح في الأرض مهمة كُبرى، تشمل إنسان الأرض؛ فرداً كان أو مجتمعاً، وتشمل نباتها وهواءها وجمادها وحيوانها وكل ما يلزم لسلامتها، وهنا المنافقون ظاهرة خراب للمجتمع الذي يعيشون فيه، وإن نُصحوا لوقف سلوكهم المراوغ وكذبهم؛ ادَّعوا أنهم إنما يقومون بالإصلاح! فإن كان الصلاح هو وجود الأمر بأفضل ما يجب أن يكون عليه، صحة وجمالاً وبهاءً ورونقاً ونظاماً واتساقاً وتناغماً، والفساد هو إخراج كل ذلك إلى نقيضه، وتحويل الصحة إلى مرض، والجمال إلى قبح، والبهاء إلى ظلمة، والرونق إلى بشاعة، والنظام إلى فوضى، والاتساق إلى تنافر، والتناغم إلى نشاز... فماذا بقي من المجتمع حينئذ؟ وهؤلاء لديهم انعدام للشعور والإحساس بالفرق. كل من يفسد، فعنده تبلّد في الإحساس، غياب للفرق بين الجمال والقبح، والصحة والمرض، والنظام والفوضى، والاتساق والتنافر، والتناغم والنشاز، ومرض الشعور من أخطر الأمراض، فكيف بصاحبه إن حسبه منتهى الصلاح؟

إن أحد أوجه أزمة الفساد هو ما يظهر في النفاق الذي تعالجه الآيات، ولكن مساحة الفساد واسعة، لأنها أزمة شعور بالذوق والجمال والانتظام. والإحساس والذوق في جوهره هو إدراك الإنسان بعالم الكمال والتناغم، شعوراً فطرياً ابتداء يزيده الكسب رونقاً. وما ارتقاء الإنسان ذوقاً طوراً بعد طور إلّا ابن ذلك الشعور بوجود الكمال والجمال المطلق وبحثه عنه، وفي دعوة الإسلام إلى الكمالات ما لا يخفى؛ فكل كريم من الخُلُق أمر به الإسلام، وكل قبيح من الخلق نهى عنه. وما استجابة النفر الأول من المؤمنين إلّا ابن التقاء ما يستشعرونه من وجوب

الكمال بما خاطبهم به القرآن وطالبهم به من الكمالات، وهو ما أشار إليه جعفر بن أبي طالب (ﷺ) في حواره مع النجاشي: «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، وكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بالصدق...إلخ»، هكذا استجابت الفطرة لنداء الإصلاح وميّزت بين الجمال والقبح، وهؤلاء المنافقون الذين يخاطبهم القرآن حينها هم نقيض هذا الإدراك الأولي.

• قانون العقل والتعقل وثبات الإيمان

قوم يعانون خفة العقل

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣].

• مثلث الإيمان والعقل والبصيرة

كيف ارتبط الإيمان والعقل والبصيرة الداخلية في هذا السياق؟

• هناك علاقة وطيدة بين العقل والتدبر والبصيرة الداخلية وثبات الإيمان واهتزازه

العلم والتدبر درجات؛ فالعلم بالله درجات ومراتب، ولذلك قال الله (ﷻ): ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فقلة العقل أو السفاهة والخفة هي سباحة على ظاهر السطح، من دون نفاذ إلى المعنى والجوهر.

إن موضوع الإيمان حين يرتبط بالتدّبر العميق في الكون المحيط والنظر إلى أسراره، يوصل الإنسان إلى معرفة حجمه في لغز الكون وحجمه الذي يبحث فيه. وحين يرى الفرق بين الذرة والمجرة، وتتضح له الفجوة بين الخالق والمخلوق، فتسكن الجوارح، ويختفي خطاب المغالبة ليحل بديلاً عنه خطاب التواضع، وما آفة الإنسان إلا الكِبر؛ فإن قلّبت النظر في الكون: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، ولذلك تنتشر في القرآن آيات الكون والنظر، إنه العلم الذي يطلبه القرآن، وأكثر الناس عنه غافلون.

إن دواء الكفر هو التفكّر والنظر في الكون، ومعرفة أسراره؛ فعلى حافة العقل والنظر يوجد الخالق العظيم، وإلا فإنّ الإنسان يسقط في متاهة حمقاء، فكل شيء في الكون يقود إلى التسليم بعظيم الصنعة، وكلما ظنّ الإنسان أنه قد علم، أفاق على جهله وقلة علمه. ولا راحة له إلا بالتسليم بوجود الخالق العظيم، عندها يتصالح مع الكون، ويرتقي من دون عناء نفسي في سلم المعرفة، بالكون وتسخيره، وبالخالق وتدبيره.

والمنافقون هنا في منتهى نقصان العقل والتدبر، فلم يدركوا خطاب السمو النبوي وهو ظاهر، ولم يدركوا خطاب الكون وهو محيط.

هنا سنلاحظ أن خفة العقل قادت إلى عدم النفاذ إلى روح الإيمان، وقادت إلى افتقاد البصيرة والقدرة على المراجعة.

- **قانون الاستهزاء**

الاستهزاء والسخرية المُستخفية والعلنية هي جزء من ظاهرة

إنسانية مُستشرية، وهي تصل إلى ذروتها في مشهد النفاق، لكنها بحسب التوصيف القرآني: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١] تنتشر بين جميع الأقوام، إلا أن الآيات ستتناول أشدَّها، وهو النفاق وتمظهراته.

• شياطين الإنس والجن ولعبة الاستهزاء

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [١٤].

• حين تتكامل حلقات الجهل

يخادعون، يكذبون، يفسدون، سفهاء، يستهزئون

• قانون الإمداد القرآني.. التحذير للجميع

فتنة الإمداد والنعمه

الحذر من الإمهال والإمداد!

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١٥].

الإمداد يحصل لجميع أنواع السلوك الخاطئ وهنا قمته، ولكن ذلك ليس مقصوراً عليه، فكل أشكال المعصية قابلة لقانون الإمداد القرآني... انتبه

حين يختار الإنسان النفاق سلوكاً لا يلبث أن ينطبع به.

الإنسان يختار طريقاً خاطئاً، ويسد أذنيه عن الحق البيّن؛ يفقد منطقه ويفقد سويته النفسية، ويُمارس سلوكاً مزدوجاً، ويبدو أن تلك الحالة كانت مُستشرية، فأفرد لها القرآن مساحة كبيرة في الشرح والبيان، ويبقى السؤال: ماذا يعني ذلك في هذا العصر؟ وفي بيئات إسلامية لم يعد الإسلام فيها مهتز الوجود، والغالبية

الغالبة فيها مسلمون؟ أهو جزء من قصة ظهور الدين؟ أم هو حالة قابلة للتكرار تحت شروط معينة؟ المهم أنه - فيما نعرفه من واقع - غير موجود بالمعنى الاعتقادي، وإنما موجود بالمعنى السلوكي (إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان). وهو موضوع في غاية الخطورة، على الرغم من أنه يبدو للبعض أهون من الأول (أي: النفاق الاعتقادي)، ولكنه في واقع الحال مدمّر لكل مجتمع، فكل معاملات الناس تقوم على الثقة المتبادلة بينهم، والثقة هي الحد الأدنى لعلاقات البشر؛ فعلاقة الإنسان بأهل بيته، وعلاقته بالمحيطين به، وعلاقات بيعه وشرائه ونظام حكمه واقتصاده، تقوم على أساس الثقة، ولو أحس أيّ مجتمع بعدم الثقة في ما يقال، وفي الوعود، وفي العهود، لانهار البناء الاجتماعي، ولأصبحت القوة هي سيدة الموقف، ولتعايش الناس وأكل بعضهم بعضاً... تلك هي خطورة النفاق السلوكي المعاصر، وما الاضطرابات السياسية وعدم استقرار الأوطان إلا ثمرة لعدم الثقة وضياع الكلمة والوعد والعهد.

إنه خطاب في تلك اللحظة التاريخية يقع على ممارسات وأفراد بأعيانهم، يستمعون إلى الخطاب فيعرفون أنهم هم المعنيون به، هم حينها ليسوا حالة مُتخيّلة كما هو حالنا ونحن نقرأ القرآن اليوم، ولكنها مع ذلك تنقلنا مباشرة إلى ذلك الحدث.

- **نهاية رحلة النفاق**

كيف سيكون وهو لم يميز في أي صفقة دخل؟

• صفقة خاسرة

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۞ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۞ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۞ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٦ ـ ٢٠].

صفقة خاسرة لأناس بلغوا شواطئ الإيمان ثم تاهوا في موج الضلال:

حين ننظر إلى مفهوم الضلالة والهدى والتجارة والربح والخسارة، نجده قريب الفهم للعقل العربي الذي أَلِف بيئة الصحراء وقوافل التجارة واحتمالات الهداية أو الضلال في متاهة الصحراء، وهي صورة حسيّة قوية الوقع، وهؤلاء المنافقون قوم أشبه بمن قام بعملية تجارية استبدل فيها خارطة فاسدة، وهي صفقة خاسرة ولا شك، بأخرى صحيحة. فمن وصلته خارطة الإيمان، فقد وصله النور في ظلمة الحيرة، وهو باختياره الكفر استحق أن ينزع منه النور ويبقى في ظلماته، أو هو أشبه بقوم في ليلة ظلماء ترعد سماؤها ويلمع وجهها بالبرق بين آونة وأخرى، وقوم في شدة الخوف من الظلام والصواعق، وهم يحاولون أن ينجوا بأنفسهم وليس لهم مأوى، وقد أحاطت بهم أقدار الله وهم عاجزون عن التقدم إلّا أن يلمع البرق فينير الطريق لهم، وذلك نور الإيمان حين يستبين، وحين يختفي

يعودون إلى ظلمة ليل الشرك البهيم، وتلك قدرة الله الذي يمتلك منهم السمع والبصر، وهو من تركها لهم ليستفيدوا منها. والنص من زاوية يرسم صورة مرعبة لهؤلاء القوم، وهي تختم بأن السمع والبصر وأدوات التلقي لم تُسلب منهم حتى اللحظة، ولكن الله قادر على نزعها منهم، فهو على كل شيء قدير.

الفصل الثاني

الجولة الثانية
(قصة الوجود وأسئلة البدء)

• أسئلة الإنسان الكُبرى

لقد دونت لنا الفلسفة لقاء الإنسان بالطبيعة، وأسئلته الوجودية عن المادة وماوراء المادة. ونحن هنا سنلتقي بالرواية القرآنية للإجابة عن الأسئلة الوجودية (من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟)، لنستكمل بناء خارطتنا المعرفية القرآنية.

• التعليل.. مبدأ قرآني

طلب مُعلل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [٢١ ـ ٢٢].

ها هو الخطاب يأتي متعلقاً بالإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ويأمره بالعبادة، وهو حين يأمره فإنه يُعلل له الأمر.

• مثلث: خلقكم.. جعل لكم.. تجعلوا له أنداداً

يُدرك العقل بسهولة أن الإنسان كائن موجود، كان من الممكن أن لا يُوجد، وهو موجود من عدم، ومن سبقه من

الأمم كذلك، وهو حين يستقبل الحياة، يجد الأرض ممهدة مبسوطة لحركته والسماء التي تظله مُتماسكة لا تنطبق عليه والماء الذي يتنزل عليه والثمار المُجهّزة له... الكون مصنوع على شاكلته مُستجيب لقدراته، كل شيء في الكون مُطابق لملكات الإنسان وأجهزته، الكون يُعلن للإنسان أنه جاهز للاستخدام، فمن رتب هذا التوافق؟

ها هنا أول الخطابات القرآنية الكبرى: «يا أيها الناس»؛ خطاب يتوجه إلى الإنسان في كل مكان وزمان، يتوجّه إليه بما هو قريب من وعيه، ولفظة «ربكم» هنا، تقول لنا كل ما هو مُختزن في الخطاب من الخلق والعناية. إنه الرب بكل ما تحمله الكلمة من صور العناية المتناهية: يرعاه ويمُدّه بالغذاء في بطن أمه، ثم يرعاه بها طفلاً، وتحتضنه الأرض بخيراتها، كل ذلك من دون تدبير منه أو تفكّر مُسبق.

هذا العلم القريب من وعي الإنسان وما ينسبه مُشركو الجزيرة وغيرهم إلى الخالق من أنداد لا يستقيمان؛ فكل شيء في الكون ناطق بخالق واحد. ويكفي أن ينظر الإنسان إلى كل هذا الترابط المعقّد بين كل المخلوقات، ليعلم أن مُدبِّر كل ذلك واحد أحد، ولو تعدد لاختل نظام الكون؛ فمن ربط الشمس والحرارة بالبحر، والسحاب بالريح، والمطر بالبرودة، والماء بالزرع، في حركة لامُتناهية من العطاء؟ هذا التشابك في التصميم يقول لنا إن وراءه يداً واحدة خالقة، صانعة، مُدبّرة، حكيمة.

- **فجوة الشك تحتاج إلى جواب**

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ

وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ۞ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [٢٣ ـ ٢٥].

١ ـ معجزة الكتاب

لم يتحدَّ الله (ﷻ) أهل ذلك العصر بمعجزة حسّية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، بخلاف كثير مما يقال عن المعجزات عامة فأهل ذلك الزمان لم تُعرض عليهم آية حسّية بغرض التحدي والإلزام وربما حدث ذلك لأغراض أخرى، ولكن ليس لغرض التحدي والإلزام. هنا التحدي لأهل ذلك العصر ولكل العصور بالمعجزة الخالدة، وهي القرآن.

ولكن اليوم لن يسعى أحد إلى مماهاة ومحاكاة القرآن في نَظمه، ولو حاول أيّ شخص أن يفعل؛ فتعيين المُحكّمين ومعايير التحكيم بطبيعة الحال أمر لا يقبل التوافق. ومن هنا، يمكن الحديث عن المعنى في عصرنا الملآن بالشك والريبة. في عصر انفتحت فيه أسئلة أكثر، وتخترقه عملية تواصل إلكتروني، وأصبحت العُزلة مُستحيلة. وليس هناك من طريق للتواصل مع الحقيقة إلا ببحث الكتاب ذاته، هذا ما يعرضه القرآن: انظر في القرآن، تلك هي الرسالة.

الريب هو الشك المصحوب بالاتهام، والمشركون وغيرهم

من العرب يجدون أمامهم دعوى نبوة وطلب اتّباع، فهم شاكّون في الدعوى مُتهمون قائلها، وخطاب القرآن موُجه إليهم، وهو بالتّبع موُجه إلى البشر في كل مكان، وهذه سور القرآن أمامكم ناطقة فاجمعوا أنصاركم واستغيثوا بهم وأتوا بسورة واحدة من مثله (أي: تشبهه، ولم يشترط التساوي)، والسورة هي القطعة من القرآن تقود إلى ما بعدها. والتحدي هنا ليس مرتبطاً فقط بالحال، بل هو للاستقبال أيضاً ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾، فهو يُصادر الفعل في المستقبل، وقد مضى على هذا التحدي قرابة ١٤٠٠ سنة، ولم يقم أحد بمحاولة جادة محفوظة، للإتيان بشيء من ذلك، هذا ما نعرفه على الأقل.

ولكن ما وجه الإعجاز هنا؟ أهو البناء اللفظي، أم عمق المعنى وتموقعه في كل النسق القرآني؟ حين ننظر إلى أقوال المُفسّرين والمُهتمين، سنجد اجتهادات كثيرة أطلق عليها إعجاز؛ فمنهم من نظر إلى جانب اللغة والبلاغة، ومنهم من نظر إلى جانب العلم والمعرفة، ومنهم من نظر إلى ظاهرة الأرقام والأعداد، ومنهم من أبهم فقال: إعجاز من كل وجه.

ولكن أهو ظاهر للمؤمن أم هو ظاهر لعموم البشر؟ والإيمان ظاهرة صعبة ومُركّبة، يدخل فيها العقلي والعاطفي والمصلحي. وانظر إلى معتقدات الناس في الكون المحيط، وكيف يدافعون عنها، وهي عند مخالفيهم لا تساوي شيئاً، إنها محض تعصب للمُعتقد لا يقوم عليه دليل.

نحن ننظر إلى القرآن مؤمنين بما جاء به، والآية قطعاً حين تَنَزُّلها لم يكن للعرب علم بالإعجاز العلمي أو الرقمي، والخطاب مُتوجه إليهم باعتبار الظاهرة اللغوية والمعنى الظاهر،

ولا تحتفظ لنا المُدونة التاريخية بأيّ استجابة ذات بال لمعارضة القرآن بمثله، على المستوى اللغوي، على الرغم من طرح التحدي وقيام الداعي إلى هذا الحد.

يمكن الجزم أن القرآن لم يتحدَّ معاصريه بمعجزة حسيّة، بل تحدّاهم بالكتاب، أن يأتوا بسورة من مثله، إنه شيء ما في نسيج السُّوَر عصِيٌّ على الإنسان أن يضاهيه، إنه كل المزيج الذي يشمل الشكل والمضمون، والصوت والجرس والتتابع، والسياق الظاهر والباطن، العقل والروح، فأنت حين تقترب من القرآن بعقلك تشعر بالنّشوة، وحين تقاربه بسمعك تشعر بالنّشوة، وحين تقاربه بمشاعرك تشعر بالنّشوة، وحين تكرّره لا يتوقف السؤال والفضول، وحين تريد تقليده تقف بك الحيل، لأنك لا تستطيع أن تُقيم المزيج كله.

ولكن ما الذي يعنيني أنا كمرتحل في القرآن؟ ماذا عسى أن أقول في الظاهرة القرآنية وهي تخاطبني؟

حين نظرت إلى سورة الفاتحة وتجولت في القرآن، وجدت مفاتيح الأسئلة الكُبرى ومفاتيح القيم الإنسانية الأسمى:

- بم نقرأ الكون والمنظور الشامل؟
- وما علاقة الخالق بالكون؟
- وكيف تنتهي رحلة الإنسان؟
- وما أهمية هذه النهاية؟
- كيف تجيب هذه النهاية عن سؤال الشر؟
- وما المطلوب من الإنسان؟

- وما هو التطبيق العملي المُحتذى؟
- اقرأ وأخواتها.
- أهمية الدليل والبرهان.
- وحدة الأصل البشري.
- وحدة الوظيفة الدعوية للرجل والمرأة.
- المال وحقوق المستضعفين.
- السياسة والشورى.
- القضاء والعدل.
- المساواة بين البشر.
- الكرامة الإنسانية.
- التعارف الكوني بين بني الإنسان.
- تنظيم دوائر الحرب والسلم ودائرة الدعوة ودائرة العهد.
- كراهية الاعتداء.
- كراهية الظلم.

والسؤال: كيف لرجل أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، أو حتى يقرأ ويكتب، في ذلك العصر أن يجمع كل ما حيّر الإنسان في كتاب يختزن فيه حمولة لا تزال البشرية تدور حولها؟ يصعب على عقلي أن يُصدّق ذلك، ولا أجد له تفسيراً سوى الوحي. فلا هي بنت بيئة الرسول (ﷺ)، ولا هي بنت بيئة الفرس، ولا

هي بنت بيئة الروم، ذلك هو الجانب الذي يجعل الإنسان مؤمناً. وهو التحدي الذي يعرضه القرآن منذ لحظته الأولى حتى اليوم؛ فالقيم والمفاهيم الكبرى التي تتطور في اتجاهاتها البشرية إلى اليوم، جاءت في ذاك الكتاب الخالد، لتشهد على أنه ليس ابن ثقافة وتطور بشريين، ولكنه تنزيل من رب العالمين، ذلك هو الإعجاز كما أفهمه، إنه إعجاز القيم والمفاهيم الكبرى، وهو تحدٍّ مستمر للإنسان عبر الزمان والمكان.

وحين يعجز الإنسان عن التحدي وتتكسّر أشرعته في بحر الاستجابة القاصرة، فليعلم أنه مُقبل على الجزاء، وعليه أن يضع بينه وبين اللحظة النهائية المُعدّة لمن كفر بعد قيام الحُجة عليه حاجزاً، وهو الإيمان والعمل.

وهو حين يُؤمن فذلك نصف الطريق، فالإيمان القرآني مرتبط بمهمة إعمَار الأرض ووقف الفساد، إنه مُرتبط ارتباطاً لا ينفصم بالعمل ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والصالحات هنا ليست مُبهمة وإنما مُترجمة في صراط الذين أنعم الله عليهم، وهي حركة تشمل كل نواحي الحياة من المحراب إلى ساحات القتال، وما بينهما من عمل في سوح العلم والبحث، وفي الصناعة والزراعة، وفي فنون العمران وتقنين النُظم، سِباق إلى الأحسن: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، سِباق لا محاباة فيه بين الأمم: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ فالإيمان نصف، والعمل المُترجم له هو النصف الآخر، وكل تقزيم لمعنى العمل ينعكس ـ لا محالة ـ على قوة الإيمان في الوجود وفي الواقع، فالإيمان وحده لا يُغني عن سلامة التصور لمعنى إعمار الأرض وإصلاح الحياة.

والعمل الصالح بهذا المعنى الواسع جزاؤه الجنة التي يتفنّن القرآن في تزيينها للمؤمنين، وربما كانت الأنهار، والفواكه الدانية والثمار المتنوعة الطعم المتشابهة الشكل، والأزواج المطهرة، هي حلم الإنسان العربي، ربما كان في غير بلاد العرب جنان وأنهار، لكن هذا لا يمنع أن يشمل أهلها الخطاب القرآني، لأن الإنسان يبقى مشدوداً إلى ذلك الكمال الأزلي بغضّ النظر عن تفصيلاته، وهو ما يجعل القرآن مفهوماً في غير بيئته يدخل فيه كل البشر ويجدون فيه أنفسهم.

٢ ـ معجزة الكتاب ومعجزة الخلق

لقد تحدى البشر بالكتاب المسطور، وهنا يتحدى بأصغر الموجودات في الكون المنشور!!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [٢٦ ـ ٢٧].

- **عظمة الصانع ودقة المصنوع**

ها نحن أمام معجزات محسوسة تُحيط بنا في أصغر المخلوقات، والخالق يضرب بها المثل لبيان عظيم الصنعة، فيلتفت إلى عظيم الصنعة من يعتني بالمعنى العميق ويعرض عنها ويرتكس من تحكمه ثقافة بيئته التي تستهين بالمخلوقات الصغيرة، ها نحن أمام بصيرتين: بصيرة نافذة تستفيد من

التوجيه، وبصيرة مطموسة لا ترى إلا ظاهر الأشياء.

لكن، هل توجيه النظر إلى السطح أو إلى العمق أمر اختياري فنُلام عليه، أم هو أمر فطري لا حيلة لنا فيه؟ هنا يبدو التعليق متضمناً عنصر اللوم مما يعني أنه أمر كسبيّ، هي عملية استخدام ملكات العقل أو البصيرة أو الإعراض عنها، وهذا يطرح سؤالاً كبيراً: لماذا يُعرض الإنسان عن رؤية الحق؟ وما الذي يغلق بصيرته؟

في المشهد الذي بين أيدينا سنرى يهود المدينة ومناصريهم، وهم أناس لهم منظور اعتقادي، ولهم مصالح يريدون الحفاظ عليها، ولهم كراهية شديدة لصاحب الفكرة. ومن هنا، فلا يعود هناك أيّ نظر موضوعي لِما يُقال، بل هي عملية تصيّد للحِجاج... تلك هي الحالة التي يعالجها النص.

يضرب القرآن المثل بالكائنات الصغيرة: النمل، النحل، الذباب، وهو أعلم بعظيم الصنعة. وهنا سنجد نفراً من الناس قد استغربوا من أن يضرب رب العزة الأمثال بمثل هذه الكائنات، لحقارتها عندهم، فيرد القرآن على اعتراضهم بأن الله أعلم بخلقه ومن حقه أن يضرب الأمثال كما يشاء وبما يشاء، وأن هذه الأمثال يعرف بها البعض الحق فيتبعوه، ويضل بها أقوام آخرون. ولا يضلهم بها ظلماً، بل لأنهم فاسقون، والفسق في أصل اللغة هو خروج من أصل. فالرطبة يُقال عنها فسقت حين تخرج من قشرتها، والفأرة تسمى فويسقة لأنها تخرج من جحرها، والخروج هنا مرتبط بالفساد والإفساد، وهؤلاء القوم عندهم ميل إلى المعصية، وخروج للإفساد فاستحقوا العقوبة. وبالنظر إلى نوع الإفساد الذي تلبّسوا به، نجد قائمة به: نقض

عهد الله الذي واثقهم به، ونقض العلاقات التي أمروا بالعناية بها، وعموم الفساد في الأرض. وحين نسأل عن هذا الموثق الذي أخلّوا به، وتلك الصلة التي أُمروا بها فقطعوها، وذلك الفساد الذي تلبّسوا به، لا نستطيع أن نتصوره، فهؤلاء المُعترضون هم قومٌ ما قد يكونون من المشركين العرب، أو من أهل الكتاب، أو من المنافقين، ولكلٍ حالته الخاصة. والأقرب إلى التصور أنهم يهود المدينة، فهؤلاء هم من أخذ الله مواثيقهم مرّة بعد مرّة، وهم من أُمروا برعاية رابطة الدين بينهم فقطعوها، وهم من أفسدوا في الأرض فعوقبوا بالشتات، وهذا مرتبط بالصراع على الشرعية في المدينة، فاليهود الذين كانوا يحتكرون التحدّث باسْم الدين، وجدوا أنفسهم مع رسول ورسالة، وحركة تحوّل كُبرى، فكان لا بد من مواجهتها بشتى أنواع الاعتراضات، وهنا أول اعتراضاتهم على النسق القرآني أو ترتيب المصحف كما استقر. والبعوضة هنا دلالة على دقيق صُنع الخالق، ويبدو المعنى مُشرقاً اليوم وأكثر من أي يوم مضى، فنحن نعلم أن هناك ما هو أدق منها، نعلم اليوم عن البكتيريا وعن الفيروسات وهي كائنات في منتهى الدقة، ونعلم عن أكوان في منتهى الدقة والصغر، ولا تقل عظمة عن الكون الكبير؛ فها هما فضاءا الذرات والخلايا يكشفان لنا عن نفسيهما كعالمين مذهلين، وجملة «فما فوقها» تنصرف في المعنى لما هو أصغر ولما هو أكبر.

إن الكائن الكبير ظاهر، ولكن حين تدق الصنعة وتتعقد تظهر قدرة الصانع وفيض علمه؛ فصناعة حاسوب بحجم غرفة

كبيرة لا يُضاهي في صناعته حاسوباً بالمواصفات ذاتها بقدر علبة الكبريت مثلاً، فكلما دقت الصنعة كلّما دلت على مهارة الصانع، وله المثل الأعلى.

إن أمر دقة الصنعة لا يخفى على العقلاء، ولكنه حجة يستخدمها من أراد الخروج عن طاعة الله، وهؤلاء هم الذين اختاروا الفسق وتحججوا بما لا يُحتج به.

وهؤلاء المُعترضون خارجون عن طاعة الله بواقع حالهم، فهم لم يفوا بعهدهم مع الله، ولم يَصِلوا ما أمرهم الله بوصله وأفسدوا.

ومن كانت صفته الإفساد فهو من الخاسرين، تلك هي النتيجة النهائية التي يُسدل عليها الستار، وذلك ما يعنينا كبشر.

٣ ـ معجزة التصميم المُستجيب للإنسان

سؤال الموت والحياة أو الوجود والعدم وإجابته.

سؤال الكون المصمم للإنسان وإجابته.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٢٨ ـ ٢٩].

• رحلة الحياة تطرح سؤالها؟

من عالم الذر إلى ظلمة البطن إلى ظهر الأرض إلى بطنها إلى النشور إلى المُستقَرّ الأخير. رحلة الإنسان بين عوالم الغيب وعالم الشهود، رحلة يشير إليها القرآن مُذكّراً الإنسان ليفيق من

غفلته، فهو ليس ابن عالم الشهود، بل هو مسافر يعبر من عالم الشهود ويرى المسافرين وهم يُولدون ويراهم وهم يرحلون وينسى أنه منهم. مُسافر آخر... عابر سبيل آخر.

لم يَخلُق الإنسان نفسه ابتداءً، ولا يستطيع أن يَمُد في عمره ولو لثوانٍ، فكم درجة تفكُّره؟ كم تطرح الصورة المتكررة عليه من أسئلة؟ كيف يتجاهل السؤال ويمضي غير عابئ بأهم الأحداث من حوله وله على قدم سواء؟ «كيف» هنا استنكار على عدم التفكّر والسؤال، وهي تُحيلنا إلى سؤال: إلى أي درجة من التساؤل مطلوب من الإنسان أن يصل، حتى يعلم أن ظاهرة الحياة والموت هي مُوجب من مُوجبات الإيمان؟ ومن أي وجه تكون من مُوجبات الإيمان؟ إنها في العمق سؤال الوجود الأول. وأكبر أسئلة الفلسفة: من أين جاء هذا الوجود؟ وإلى أين يمضي؟

- **عالم الشهود يطرح سؤاله**

«جعل لكم ما في الأرض جميعاً»، ها نحن كبشر، كل ما في الكون مُصمم ليستجيب لملكاتنا: ماؤه وهواؤه ونباته وحيوانه ومعادنه، كل شيء فيه في مُتناول يد الإنسان وعقله، كل شيء يُلبي حاجاته الفيزيائية، كون يعرض نفسه للكشف والتسخير.

من أوجد ذلك التناغم بين الموجودات وجعل على رأسها الإنسان، هنا تأتي: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾.

كيف لا يلتفت الإنسان إلى عظمة الخلق والتناغم وهي تُحيط به من كل جانب؟ وسؤال التناغم سؤال علمي متعلق

بالمادة والموجودات، ولكن في نهاية الخيط، وكلما دقت الصنعة، عَظُم الاستنتاج، ويبقى سؤال الخالق والمحرك الأول والمُوجد.

مرّة أخرى يطرح القرآن قضية مشهودة ليدلل على أمر غيبيّ، يطرح الكون المشهود على العقل ليصل إلى العلة، ومرّة أخرى نعرف أن ذلك ليس طرحاً للعقول المستريحة التي تعبر زاحفة على ثلج الحياة من دون أسئلة كبرى، بل القرآن لا يعطي ثماره الكبرى إلا لعقل اتسم بالعلم والتأمل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] تلك هي الحقيقة ببساطة قرآنية واضحة.

• مهمة الإنسان تحتاج إلى بيان

قلق ملائكي من الإفساد وسفك الدماء

فبِمَ استحق هذا الكائن هذا التكريم على الرغم من قلق الملائكة؟

هذا ما ستُفصح عنه الآيات اللاحقة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

١ ـ قلق ملائكي من الإنسان

ها هو القرآن بعد أن كلّمنا عن خلق الكون يتحدث عن هذا المخلوق، إنه يُكلّمنا عن الكُليّات، يُنظّم عقولنا في التعاطي

مع الكون. فمن هو هذا المخلوق الجديد؟ ما علاقته بالكون؟ لِمَ هو مميز في هذا الكون؟

فَمن «خلق لكم ما في الأرض جميعاً»؟ ومظهر التكريم الوجودي الأعلى للإنسان، ها نحن نُواجه بأهم وأخطر ما يمكن أن يفعله هذا الإنسان: ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، فكيف سيُجيب الخالق على استفسار الملائكة ورؤيتهم لهذا المخلوق، وإمكانياته للإفساد وسفك الدماء، بل كيف سيمكن لهذا المخلوق أن يتغلب على تلك الطبيعة والقبلية للإفساد وسفك الدماء. تبدأ القصة في الملأ الأعلى بخبر من الله لملائكته بأنه جاعل في الأرض خليفة، وخليفة تعني قوم يَخلُف بعضهم بعضاً، مُكلّفون بإعمار الأرض: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

والملائكة لسبب ما ستكشف عنه الآيات اللاحقة، يستشكلون الخبر؛ فهذا الكائن لسبب ما، بدا لهم أنه سيقوم بمهمة أخرى في الأرض: ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، والسؤال المُتبادر إلى الذهن: كيف عرفت الملائكة وقدّرت ذلك؟ ليس عندنا وسيلة للجزم برأي، أرأت ملكاته؟ أم خَبِرت ذلك من مخلوق شبيه له على الأرض؟ أم أن أحداث المستقبل بالنسبة إليها ماضٍ مُنجز بحسب بعض النظريات الرياضية المعاصرة؟ لا يهمنا كثيراً هنا الدفاع عن أيٍّ منها، فالمهم أنها استشكلت الأمر ظاهراً، وعرضت نفسها باعتبارها كائنات لا تفتر عن التسبيح (المسارعة بالحمد) والتقديس (ننزهك عن كل سوء)، وهو طلب مُبطّن بطلبهم للخلافة أو بالدور الذي أُوكل الإنسان به. ويُختم المشهد بقول المولى (ﷻ): ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهو تمهيد لبقية الحدث.

٢ ـ قابلية الإنسان لتوليد العلم والأجوبة

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [٣١ ـ ٣٢].

• آدم والعلم

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، لقد وُضِعَ في آدم سرّ المعرفة التوليديّة، وامتلك مفتاحاً من مفاتيح المعرفة، وإن صغر بجانب علم الله، إلا أنه بالنسبة إلى بقية المخلوقات عظيم، إنه مفتاح مناسب لمهمته في إعمار الأرض. والملائكة هنا انتبهت لما أودعه الله في هذا المخلوق من سر المعرفة، ووصفت ربها بالعلم وبالغرض والقصد ووضع الأمر في موضعه (الحكيم).

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [٣٣].

• الله وتعليم آدم

لقد كتمت الملائكة سؤالها العميق: بما استحق هذا المخلوق الجديد هذه المنزلة دوناً عن الملائكة؟ ولم يجبها الرب جل وعلا عن سؤالها المُتعلّق بقابلية هذا المخلوق الجديد للإفساد وسفك الدماء: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، وكأن في معرفة أن هذا المخلوق يمتلك آلة التعلم والتوليد كفاية في مقام الإجابة، فبالعلم يتغلب الإنسان على نوازع الشر. ويبقى السؤال عن أيّ علم وبأي درجة؟ لقد أجابت

بدايات سورة البقرة، الآية (٢): ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٣ ـ التكريم الوجودي للإنسان ومرض الكبر

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٣٤].

أبى واستكبر.. سر الداء

ها هو المشهد يتّسع بالتدريج، فقد بدأت الآيات بخلق الأرض ثم الكون ثم بتسخير الكون للإنسان، ثم يظهر الملائكة متسائلين، ثم يظهر هذا المخلوق الشيطان... شيئاً فشيئاً يكشف القرآن عن الجذور الأولى للمشهد الكوني.

- **سجود التكريم، وملك طائع، وشيطان أبى واستكبر**

داء الكِبر أساس البلاء

أترى استعلاء البشر على البشر بالباطل؟ فوجه الاستعلاء الحقيقي هو الإيمان والتقوى، هو شيء قلبي لا يعلمه إلا الله، وهو لا يُسوّغ لأحد أن ينظر إلى الناس شزراً. يقول علي بن أبي طالب (عليه السلام): «فالناس إمّا أخ لك في الدين أو صنو لك في الخلق»، تلك هي الحكمة والفهم السديد في الدين، ولكنّ البشر يُعجبهم الاستعلاء بالدين والعرق والمذهب والطائفة والقبيلة والأسرة والمال والبنون، شيء ما يجعل الإنسان يدخل إلى ذلك المنزلق التاريخي الذي بدأ مع إبليس، ومن ذلك تتولد سائر الشرور؛ فالحروب الصغيرة والكبيرة منها، المسلحة وغير المسلحة، والنزاعات الأهلية، كل شيء يبدأ من حالة استعلاء وينتهي إلى حالة احتراب.

• **وللموضوع قصة يستعرضها القرآن لرسم الخارطة الكبرى**

﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ هنا يتجلّى التكريم لهذا المخلوق الجديد (آدم)، وقد تجلّى قبلها المُؤهل الذي جعله يستحق هذا التكريم وهو العلم أو مَلكَة التعلّم أو قابلية توليد العلم، إنه أمر من الله للملأ الأعلى بالسجود لآدم، شيء مذهل وفوق التصور، كل الملأ الأعلى مطلوب منه السجود لآدم، هذا المخلوق الذي من قابلياته ـ كما قالت الملائكة ـ الإفساد وسفك الدماء! وأنه بميزة العلم أصبح مُستحقاً لهذا الموقف العظيم.

إن هذا يطرح سؤالاً كبيراً حول موضوع العلم والإنسان والمؤمن؛ فإن كان دور الإنسان في خلافة الأرض ومنع الفساد، ووقف سفك الدماء أموراً مرهونةً بقدرته على التعلّم، فلنا أن نسأل عن حجم القصور في اعتبار السبب الوجودي للإنسان عندما يهمل خاصية التعلّم.

بل يُطرح سؤال كبير على من خص العلم بعلوم الآلة الدينية، ونسي أن مهمة الإنسان هي إعمَار الأرض، ووقف الفساد وسفك الدماء، وأنّ كل آلة أو فكرة تُساهم في ذلك هي علم لا بد من أن يكون المؤمن فيه مبدعاً، وهي عبادة لله مطلوبة منه بأصل تكوينه كبشر مُكلّف بمهمة الإعمار. كما أن وقف سفك الدماء هو في صُلب مهمة الإنسان العَالِم، وكل ما يحقن دماء الإنسان في الأرض من قوانين وتشريعات، وكل ذلك يقع في صلب دوره الوجودي.

ها نحن قلنا إن هناك في صُلب مهمة الإنسان الوجودية (العبادة) مهمتين كبيرتين هما: الإصلاح، ووقف سفك الدماء،

وإن أداته الكبرى للقيام بهما هي العلم، وإن تكريمه في الملأ الأعلى نتج من حجم المهمة المُلقاة على عاتقه.

ومن المشهد السابق ظهر لنا مخلوقان كريمان، هما: الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، والإنسان وهو مخلوق قابل للإفساد وسفك الدماء: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ ـ ٥]، الإنسان مخلوق متردد بين السمو والانحطاط، فحين يرتقي إلى أصل تكوينه يكون في أحسن تقويم، وحين يتنزّل إلى حيوانيته يصبح في أسفل سافلين.

وها هو المخلوق الثالث يظهر للوجود وهو نقيض الملائكة، مخلوق طبعه الكِبر والعناد، وهو مُتمرّد على العلم اليقيني، هذا المخلوق وصفه الله بأنه: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾، وأبى بالانتساب إلى الآباء تفخيماً وتعظيماً، وباعتبار الأصل التكويني: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] يمنع من الانصياع للأمر، هو اعتقاد بالتفوق لأصل النشأة لا للحق القائم، وهو أمر بطبيعته يقود إلى الاستكبار. فماذا يكون الكبر إلا اعتقاد الأفضلية بغير حق؟ ولكن هنا اعتقاد الأفضلية أضلّ إبليس أكثر من تكبرّه على الإنسان. ولم ينتبه إلى أنه لا يعصي أمر آدم، ولكنه يعصي أمر الرحمن، وهذه خاصية ثالثة للكِبر هي أنه يُعمي الإنسان عن الموقف الكلي الذي يُحيط به، إنه انتقال من السيِّئ إلى الأسوأ بما لا يُقارن، ها هنا كُفر حقيقي عياني لمخلوق حضر ورأى رأي العين في الآيتين [٦ ـ ٧]، رأينا قوماً اختاروا إغلاق منافذ المعرفة على التفكُّر فوصموا بالكُفر النهائي، وهنا كفر أشد لمخلوق رأى الحقيقة ومنعه الكِبر عن الاستجابة لأمر الرحمن.

إذاً، نحن أمام ثلاثة مخلوقات: ملك طائع مطلقاً، وشيطان عاصٍ مطلقاً، وإنسان متأرجح بينهما يصعد إلى مستوى الملائكة حيناً، وينحدر إلى مستوى الشيطان حيناً آخر، وأداته في الارتقاء هي العلم.

٤ ـ صك البراءة الأصلية لبني آدم

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۞ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [٣٥ ـ ٣٧].

• براءة أصليّة وأمل مفتوح بالمغفرة

الخطيئة الأصليّة مفهوم أرهق الفكر المسيحي في القرون الوسطى، وشكّل عقدة للإنسان يومها، فهو مدان تبعاً لخطيئة أبيه آدم، هو جسد غير طاهر وغير مؤهّل للتواصل مع المطلق المستعلي (الخالق)، وهو ما حدا بالكنيسة أن تقرر أن الإنسان لا يستطيع التواصل مع ربه إلا عبر كرسي الاعتراف الكنسيّ، فهو يحتاج إلى جسد طاهر يَصِلُه بخالقه، وطريقة الإنسان العادي حتى يرتقي ويتواصل مع خالقه لا تتم إلا بتعذيب الجسد والامتناع عن الزواج والتنعّم بالدنيا، وهنا إجابة القرآن عن هذا السؤال الكبير.

هنا جزء من قصة آدم تشرح تفصيلاته آيات أخرى من القرآن، لكننا سنكتفي بالقدر الذي تفصح عنه هذه الآيات ونترك الباقي إلى حين بلوغنا إياه؛ فبَعد الخلق والتزوّد بالعلم

والتشريف بسجود الملأ الأعلى لأمر الله تكريماً لآدم، أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة، وكلمة الجنة تعني في اللغة ما كان كثيفاً من الأشجار ملتفّاً يختفي فيه من استظل به، وكلّ مشتقات الكلمة (جنّ) تؤول للخفاء. وها هو آدم ومعه زوجه التي تظهر بعد المشهد الأول مُكمّلة لآدم (ذكر وأنثى) (بعضكم من بعض)، كائنان يسكنان في الجنة. والجنة في القرآن هي مكان النعيم المطلق واختفاء الشر من الوجود، والواضح من السياق أن هذه الجنة ليست هي تلك، فهنا الشيطان موجود، ويقوم بدوره. إنها أقرب ـ في هذا السياق ـ إلى فكرة الأرض من فكرة السماء، ولا يعنينا ترجيح الأقوال بين جنة السماء والأرض، النص يقول لنا فقط إن هناك اختلافاً بين هذه الجنة والجنة المطلقة التي تذكر في سياقات أخرى من القرآن. والشيطان هنا يقوم بمهمته التي طَلَبَ أن يُؤذنَ له بها؛ وهي غواية هذا المخلوق (الإنسان) وحرفه عن الطاعة.

لقد أُمر آدم وزوجه بالامتناع عن الأكل من شجرة محددة، وأغراهما الشيطان بالأكل منها فاستجابا له، وتلك معصية للأمر، فأخرجهما الشيطان مما كانا فيه من الطاعة. فكانت العقوبة هي الأمر بالخروج من تلك المنطقة المسمّاة بـ الجنة، التي كانت تواري آدم وتمدّه بالطعام فلا يجوع ولا يعرى، ليدخل في صلب المعاناة البشرية، بأن يبحث عن المأوى والطعام والماء، ولكن المشهد الجديد لا يكتمل إلا بمعادلة الصورة، فالمخلوق الجديد باتباعه لوسوسة الشيطان نزل من علياء الطاعة، وتكملة المشهد هي توبة آدم ورجوعه إلى الله، وتوبة الله عليه.

إن توبة الله على آدم هنا هي تطهير له من فكرة الخطيئة الأولى، وهي تطهير لذريته من فكرة تحميلهم وزر الخطأ الأول، وهي فكرة فارقة عن التصور المسيحي مثلاً؛ حيث الخطيئة الأولى تطارد أبناء آدم حتى يوم القيامة. ها هو الإنسان يبدأ صفحة بيضاء، وينتقل إلى الحياة طاهراً من الإثم ليبدأ في كتابة صفحاته من جديد، مزوداً بفكرة وسوسة الشيطان وخطرها.

ولكن عطاء الآية لا يقف عند هذا الحد، فعلى الرغم من أن خطأ آدم حتى اللحظة واحد، إلا أن الله يصف نفسه بأنه «التواب الرحيم»، فهذا المخلوق ـ بقابليته للمعصية أمام رب رحيم كثير التوبة ـ لا توصد أمامه الأبواب إلا إذا أوصدها، وهو في محل الاستقبال والبداية الجديدة باستمرار.

إنه أمل مفتوح لعلاج ظاهرة الخوف البشري، فالإنسان مدعو إلى ولوج تجربة الحياة والكفاح. ومعلوم أنه قابل للسقوط في المعصية والخروج من الطاعة، ولكن ما إن يفيق من غفلته ويستغفر ربه حتى يجد أبواب الرحمة مفتوحة، إنها البداية الجديدة التي لا تنتهي ما دام الإنسان حياً.

٥ ـ الإنسان المُخيّر

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [٣٨ ـ ٣٩].

• كتاب هداية عامة واختيار

ها هو الإنسان ـ أمام الحياة وأمام اختياراته ـ مُزوّد بقدرته على التعلّم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾، ومُزوّد بهداية السماء: ﴿هُدَاىَ﴾،

أي: هدى الله للبشر بكتبه، وآخرها القرآن، وأمام رب رحيم كثير التوبة ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهو بهذا مُسلّح بكل ما يحتاج إليه في رحلته؛ قدرة على التعلم، وكتاب مرشد إلى الطريق السوي، وباب مفتوح للتوبة والعودة عند الغفلة والوقوع في الضعف، ومعرفة كاملة بالعواقب.

ها قد وضع القرآن الإنسان المؤمن في الصورة الكبرى التي تحيط به (من الفاتحة إلى الآية ٣٩ من البقرة)، وهي تشكيل للمنظور الشامل للمؤمن، وهي نقطة فارقة في الوعي الكلي بالحياة. وكل ما بعدها تفصيلات تزيد الصورة وضوحاً، وتعطي المثل. لكن تلك هي الخطوط العريضة التي يتفرع منها النسيج القرآني، ويبقي أن يشرح لنا القرآن كيف تندرج تلك الخطوط العامة في الواقع الحي المتحرك، فتخاطب أهل البلاد الأولى التي تنزّل بها الوحي وتتعداهم لبقية البشر زماناً ومكاناً.

الفصل الثالث

الجولة الثالثة
(قصة أمة سلفت، وعبرة لأمة تولد)

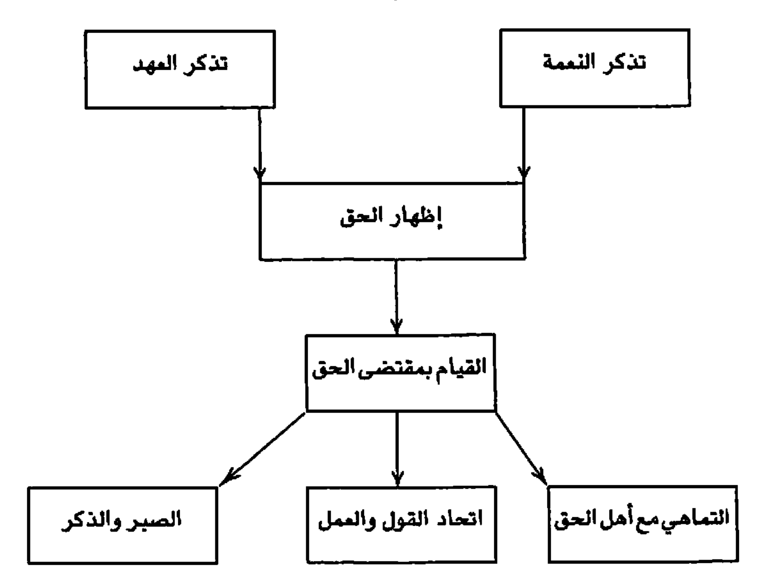
قصة بني إسرائيل ومعناها بالنسبة إلى أمة الإسلام

حين يتحدث الوحي لأمة الإسلام، ويروي لها الآفات التي أودت بأمة سابقة، كثُرت فيها النبوّات والمعجزات، وطال عليها الزمن ففقدت الكثير من مقوماتها حتى غدت عصيّة على التفكّر والتدبر. وأصبحت عبرة ومثلاً على تراكم التحولات في بيئة التدين، حتى تغيّرت معالمها؛ فلا تبقى إلا آثار لا تصنع الحياة، بل تصنع الجهل والتخلّف. . . لقد كان في قصصهم عبرة، فهل نعتبر؟

ننتقل إلى قصة يندمج فيها التاريخ بالتوجيه، والتاريخ يبقى تاريخاً أما التوجيه فهو ما يعبُر الزمن ويصل إلينا. في هذا السياق ينقلنا القرآن إلى أجواء المدينة وصراعات اليهود مع الدين الجديد، وتوجّه الخطاب القرآني إلى هذا المكون المجتمعي في المدينة، وهو حين يدير الحوار معهم ينتقل بين رفق الخطاب وخشونته، بحسب الموقف ومتطلبات الحالة، ولكن الخط العام يسير بالتدرج لنزع الشرعية والراية التي يدّعيها بنو إسرائيل ليسلمها إلى الدين الجديد.

لقد كان اشتباك اليهود في صراع متعدد الأوجه مع الدين الجديد سبباً كبيراً في تكرار الحديث عن أهل الكتاب في النص المدني، وكان تأثيرهم في خلطائهم من أهل المدينة عالياً، ولذلك عالج القرآن الموضوع اليهودي من خلال عرض نقائص هؤلاء عبر التاريخ، ليمهّد الطريق لنزع المشروعية الإبراهيمية عنهم ويبني نفسية محصّنة من دعواهم. وقد ذهب هؤلاء، فماذا بقي من القصة ويعنينا في هذا العصر؟ هذا ما سنتابعه في هذه الجولة.

مطالب عابرة للزمن من أهل الأديان



التحذير من التديّن المغشوش

• بنو إسرائيل مرآة التحذير لأُلفة التدين المغشوش

التدين المغشوش هو تعصب لموروث اكتسب صفة القداسة، بما يجعل التخلي عنه متعذراً عند صاحبه، وإن عرف الحق في غيره، وتلك آفة تطال كثيراً من البشر، وصاحبها يرفض الحق المستبين عنده في دخيلة نفسه، ويكابر خوفاً من تحطم أوهامه، وما يحسبه يقيناً في لحظة ما دفاعاً عن مبدأ هو في الحقيقة محض هوى وتعصب.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ❁ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ❁ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ❁ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ❁ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ❁ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ❁ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [٤٠ ـ ٤٦].

• التدين المغشوش له سمات

١ ـ نسيان العهد بنصرة الحق وبيانه.

٢ ـ تغليب مكاسب الدنيا على خوف الآخرة.

٣ ـ خلط الحقائق وكتمانها بعد استبانتها.

٤ ـ ترك أهل الحق وطريقهم.

٥ ـ أمر الناس بأحسن العمل وعدم إتيانه.

- **دواء التدين المغشوش**

١ ـ الاستخدام الأقصى للعقل.

٢ ـ الصبر على اتباع الحق.

٣ ـ حسن الصلة بالله.

٤ ـ الشعور العميق بأن الكل مردود إلى الله.

- **كيف يُولد التدين المغشوش؟**

ها نحن أمام نموذج حيّ لقوم بلغتهم الرسالة، وشهد أسلافهم المعجزات، وطال عليهم العهد، فوُلد أُناس لم يختاروا الدين اختياراً، بل هم أبناء بيئتهم، هكذا ولدوا على دين آبائهم، وتحيط بهم سلوكيات الآباء ومؤسسات تفسير الدين والروابط الاجتماعية والأسرية، والمقولات السائدة يتغذون منها خيرها وشرها وهم في بيئتهم. عالمهم راكد لا تَفَكُّر فيه، تقوده مؤسسات عليها رجالٌ، وعيهم تشكَّل من البيئة ذاتها، ومصالحهم ارتبطت ببقائها، ومشاعرهم كلها موجهة إلى حمايتها، فليس بمستغرب حينها أن تفسد الفطرة وتُنحّى الحقيقة جانباً لصالح مستقرات الأفهام، وتصبح هذه الأفهام الزائفة بديلاً عن الدين الحق، فلا غرابة أنه حين يصلها الحق البيّن في دعوة نبي بيّن الحجة ورسالة كريمة ساطعة النور أن تتصدى له هذه البيئة بكل ما أُوتيت من قوة، فهنا تصبح قوة الانشداد إلى الماضي والمصالح أكبر من قوة الانشداد إلى الحقيقة.

وهنا مثال على هذا السلوك البشري، هو مجرد مثال وُضع تحت المجهر، ولو وُضعت آلاف من الأمثلة غيره لوسع، فكل لقاء بين الحقيقة وبين التديّن المغشوش سنجد فيه منظومة مشتركة:

• ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ نسيان الحق وبيانه.

• ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ تغليب مكاسب الدنيا على خوف الآخرة.

• ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ خلط الحقائق وكتمانها بعد استبانتها.

• ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ترك أهل الحق وطريقهم.

• ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ أمر الناس بأحسن العمل وعدم إتيانه.

• **الحل القرآني لتلك الحالة**

ـ التَفَكّر واستخدام العقل والتدبر والنظر في نِعم الله، وفي العهد على اتباع الحق، وفي مكاسب الآخرة، وفي استقامة منهج التثبت لمواجهة الخلط، وفي التمسك بأهل الحق وإن قلّوا، وبدمج القول بالعمل: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

ـ الصبر: إن اتباع الحق يعني الصبر على مجتمع التدين المغشوش، وتوطين النفس على الحق أمر صعب يحتاج إلى رياضة وتفكّر عميق: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ. . .﴾.

ـ حسن الصلة بالله: فهي صمام أمان لمواجهة ضغوط الأرض: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾.

ـ الشعور العميق باليوم الآخر: وهو قلب التدين الحق: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

التفكُّر

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تلك نقطة البداية، إنها القدرة على التفكّر والمراجعة والبحث، وهي ما يخافه مجتمع الركود، وهو ما يجعله يلبس الحق بالباطل.

الاستعلاء والاضطهاد باسم الاختلاف

• طاغية مُستَعلٍ وأصحاب دين مضطهدون

ها هنا قصة متكررة في تاريخ البشر وهي قصة الاستعلاء، استعلاء الإنسان على الإنسان، عرق على عرق، دين على دين، مذهب على مذهب، لون على لون.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [٤٩ ـ ٥٠].

فكرة الاستعلاء وعاقبتها

ها هي أول المشاهد تُبَلور بصورة قصيرة وسريعة، تُختزل فيها قصة فرعون وبني إسرائيل. وعلى الرغم من كثرة الاجتهادات لا يعرف أحد من هو فرعون بني إسرائيل ولا الزمن الذي تمّ فيه الحدث على وجه اليقين، فالقرآن ليس كتاب تاريخ ولكنه يتحدث عن حالة تاريخية مُجرّدة، وفرعون هنا هو تعبير عن حالة عُنصرية، وليس طُغياناً مُجرّداً.

فبنو إسرائيل تم اضطهادهم من قبل «آل فرعون»؛ إنه استعلاء فئة اجتماعية على أخرى، وهم بهذا الاستعلاء استحلّوا لأنفسهم قتل الذكور واستبقاء النساء، والقرآن هنا لا يكشف كل المشهد، فخلف الخبر قصة ستظهر جوانبها في مشاهد أخرى، ولكن تظهر هنا حالة الاستعلاء والتنكيل والبلاء فقط والمُصاب العظيم الذي كان محيطاً ببني إسرائيل، إنه مشهد رسم بسرعة في العقل الإسرائيلي الاجتراري كل ما يتوارثونه عن تلك الحقبة المظلمة.

والخطاب هنا يترك للقارئ السؤال عن بقية القصة، فكل السياق الكبير الذي يُجيب عن من ومتى ولماذا وكيف، غائب. هكذا، نلتقي نحن مع قصة موسى في نسق القرآن اليوم، ولكن القرآن لم يتنزل بهذا الترتيب؛ فالمسلم الأول التقى بقصة موسى وفرعون قبلها. فالبقرة تأتي في المرتبة ٨٧ في التنزيل وأهل المدينة قريبون من اليهود، وربما على علم بقصتهم. ولكن قارئ اليوم يجد نفسه أمام هذا المشهد المختصر: أسرة أو قبيلة أو عرق، اضطهاد وابتلاء مرير لقوم مُحددين، ثم انتقام إلهي من الظالم.

والحدث الطويل هنا يُختصر في عبارتين، ولكنهما تصلان بالرسالة إلى مداها؛ فمَن في المدينة من يهود يعلمون القصة، والرسالة عميقة واضحة (يقتلون أبناءكم) من ناحية، ومن ناحية أخرى ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾. عذاب ونجاة وانتقام، والمشهد مرئي رأي العين، ومن فيها من المسلمين يرون طرف القصة الأول من دون إطالة، فتتلهّف أنفسهم لسماع باقي الحدث.

والقصة معروفة للمسلم اليوم في الغالب، لكن تحت العبارات القصيرة بدا لي مشهد مألوف في دنيا البشر اليوم وفي كل يوم؛ فالقوي يفسر القوة التي في يديه على أنها استحقاق بسبب تفوقٍ ما، عرقي أو ديني أو جهوي أو طائفي، ومن ثم يستعلي.

والاستعلاء هنا قد يصل إلى مداه الأقصى في تلك الصورة الفاقعة لشكل العلاقة: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾. وهو مشهد نشهد أعنف منه فيما يسمى بالإبادة الجماعية والعقاب الجماعي في مختلف بلاد العالم. وهذا يطرح سؤالاً كبيراً في الضمير الإنساني:

١ ـ ما سبب هذه الظاهرة وتكرارها؟

٢ ـ كيف تجد مبرراتها حين وقوعها؟

٣ ـ ما سبب انتشارها في كل المجتمعات المتدينة وغير المتدينة؟

٤ ـ لماذا لم تنجح الأديان ولا الفلسفات الإنسانية في تجفيف منابعها؟

٥ ـ ماذا على أصحاب الأديان من واجب لمنع وقوعها أو تبريرها؟

٦ ـ ماذا على البشرية أن تفعل حيالها؟

هكذا، ينبهنا القرآن على آفة من أكبر آفات البشرية أو هكذا بدا لي في هذه الرحلة.

الظلم والظلمة

يشتكي الإنسان من الظلم حين يقع عليه، ويُبرره حين يُوقعه على الآخرين، كيف يحدث ذلك؟ وما هي سيكولوجية الظلم؟ كيف يتحول المظلوم الذي ذاق مرارة الظلم إلى ظالم؟ تلك ليست المشكلة، فالقرآن يصف النفس البشرية بمواصفات: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]، ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] إنه لربه كنود، يدعوه في الضراء وينساه في السراء إلا من رحم ربي.

فالإنسان يُبرر لنفسه ظلم الآخرين لأنه قادر على أن يشيطنهم، هم بالنسبة إليه دون البشر، هم بشر منقوصي الأهلية. هم شرٌ محض، هم خطر ماحق، إن لم يتم القضاء عليه الآن فسيقضي علينا غداً، ليس بين القوم إلا الشر.

ولصناعة الشيطنة الكاملة تُخلق الرواية التاريخية، وتُستدعى الأدبيات، وتُحشى بها عقول الجماهير، وتُحاصر بها من كل زاوية، بحيث تتنفسها وتحلم بها، فيتكون مركّب الشر الأعلى، وتصبح المعادلة: أبيدوهم قبل أن يُبيدوكم!

الأفكار القاتلة لا تغادر مقاعدها بسهولة

- **مرحلة ما بعد الاضطهاد**

الأفكار القاتلة لا تغادر مقاعدها، والعفو الكبير

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ

ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [٥١ ـ ٥٤].

الحقيقة التي يخبرنا بها القرآن أن الأفكار القاتلة لا تغادر مواقعها بسهولة، حتى في وجود المعجزة والرسول، وأن الصراع مع الأفكار القاتلة يحتاج إلى زمن.

رواسب الماضي باقية في عقلية المدعوين من هؤلاء القوم، وحتى بعد ما رأوا معجزات موسى في مصر، ونجوا بمعجزة كبرى، ورأوا هلاك الطاغية، وتراث أنبيائهم حاضراً بينهم، ومعهم نبي مرسل وأخوه، وفيهم من الصالحين الذين لا يخلو منهم زمن، ولكن ميراث الماضي الذي أَلِفوه مستقر في العقول.

المصريون القدماء عبدوا العجل المقدّس «آبيس» الذي كان يُدفن في جنازة مهيبة. إن طراوة التجربة مع نبي الله موسى (عليه السلام) لم تُزِل من نفوسهم على الرغم من المعجزات ما أَلِفوه من عبادة العجل عند الفراعنة.

إن الجاهلية لا يمكن التخلص منها بمجرد الانتقال إلى فكرة جديدة، هي تبقى تعمل في اللاوعي، ومعركة اجتثاث الأفكار القاتلة معركة وعي عميق، إنها صراع الإنسان ووعيه الدفين، فالجاهلية داء دفين يستقر في العادات والتقاليد التي تعيد إنتاج نفسها بلباس الدين، ولو بعد حين ولكن في الواقع هي هي، تلك قصة بني إسرائيل وقصة كل أمة مع ماضيها ومستقراتها.

إن الاستبداد والتراث يُخلّف ندوبه العميقة في النفوس، يُغيّر من طبيعتها، يُعطيها أوصافه وروحه. ولذلك فعملية التحرّر منها ليست يسيره، ولننظر كيف أن الحرب كادت تنشأ بين الأنصار لمجرد ذكر الثارات والحروب القديمة. وهنا نستذكر حديث الرسول (ﷺ): «أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة...». إن الماضي يترك ندوبه في النفس، ويترك أفكاره وظلاله، وقادر على العودة ما لم تولد اليقظة والتفكُّر.

إن الأفكار القاتلة تستقر في العقول، وتُعيد إنتاج نفسها حين تولد الظروف المساعدة، ومن دون مطاردتها وتفكيك شرعيتها من العقول، وإيجاد الحساسية ضدها سرعان ما تظهر في السلوكيات وتتموقع مرّة أخرى كواقع جديد.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

ليس بعد الكفر ذنب؛ تلك حقيقة، ولكن هنا الذنب ليس الكفر ولكنه الكفر المضاعف؛ فالقوم معهم نبي، وهم أبناء أنبياء، والمعجزات تترى في حياتهم، وقادمون من معجزات حيّة قريبة، ثم تأتي جريمة كبرى وهي عبادة العجل.

ها نحن مع ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، الذي وصف نفسه بأنه التواب، أي: كثير التوبة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. فقصة سيدنا آدم (عليه السلام) وعفو الله عنه هي مقدمة ذلك العفو الكبير، والجرم كبير ولكن عفو الله أكبر. إنه سياق يترابط ليقدّم لنا نواة

تفكّر في موضوع من أخطر الموضوعات المتعلقة برحمة الله الواسعة والواصلة إلى خلقه، حتى عندما يكون بعدهم عن الصراط السوي كبيراً بحجم جريمة عبادة العجل، وهذا ما سنراه في كل المواقف التالية، فحجم الجرم كبير، وحجم المغفرة أكبر.

إنها رسالة للبشرية جمعاء، للمعنى الكبير في قول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهي رسالة كبرى للأمة التي تتمثل الرسالة، رسالة تقول إنها ليست أُمّة الغضب العارم ولكن أُمّة فيض الرحمة. إنه خطاب كبير سيتكرر مع معاصٍ كبيرة سنراها في قصة بني إسرائيل بعدها.

الصعود إلى قمة سلم المطالب

• **الصعود إلى نهاية السلم**

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٥٥ ـ ٥٦].

مرحلة الإنسان والكون

إن الإنسان حين يلتقي بالطبيعة البكر، ويلتقط بحواسه الموجودات، ويرى تغيّر الطبيعة عبر شجرة خضراء مورقة مُزهرة في الربيع ثم جرداء متعرية في الخريف، ثم يرى الشتاء، ويعود الربيع فتخضرّ الشجرة وتكتسي بالخضرة، ويسأل نفسه عن سر الوجود، كيف تختفي الأشياء وكيف تعود؟ ويتساءل عن المادة التي تتألف منها الموجودات، ويتسلسل حتى يصل إلى الذرة التي يتكون منها الوجود، ثم يعود ليتساءل: كيف يولّد ذلك

الحياة والنظام؟ فيصل إلى السؤال عن المُوجد والمحرك الأول، ويستمر ليقرر أنه موجود وأنه عالم مريد قادر، فتأتي النبوات فتخبره عن هذا الموجود الأعلى بالتفصيل، فذلك نوع من التفكُّر تقوده التأملات والنظر العميق. هو إيمان مستقر يقوم على العقل، واتصاله بالكون، وإقراره بعظمته وحجمه ونظامه، واستحالة العبث في دقيق صنعته.

مرحلة الإنسان والمعجزة

وهو حين يُطالب بالمعجزات الحسيّة، فذلك يعني أنه لا يتسامى لمَلَكَة العقل وسرّه وقدرته على البحث والنظر، فهو يهبط درجة لأنه حينها يكون أسير اللحظة التي تحدث فيها المعجزة، وهي تشتبه عليه مع نظيراتها من السحر فيبقى مشكّكاً، ثم هي لمن بعده من الأجيال قصة تحتمل الصدق والكذب.

مرحلة الإنسان وطلب الرؤية العَيَانية للخالق

سأل إبراهيم (عليه السلام) ربه أن يريه كيف يُحيي الموتى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. نبي طائع يريد أن يصل إلى عين اليقين، موسى الكليم (عليه السلام) يريد أن يأنس بربه: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، طلب المؤانسة. ولكن هنا قوم قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. طلب استكبار على الحق، وفقدان لخاصة التأمل التي قادت إبراهيم إلى الحق، في رحلة البحث عن الحقيقة. والفارق كبير بين من قاده العقل لإدراك الحقيقة وما بينه وبين خالقه عامر من جهة، وبين من لا يقوده العقل ويمتلئ كبراً وعلواً. هذا

الصنف ليس سؤاله سؤال تعلُّم ولا طلبه طلب تأكد، فهو قد استقر قراره على ما هو عليه، وهو قادر على أن يُفسّر أي شيء في إطاره المسبق، فلا يقتنع بشيء، تلك هي طبيعة المشهد الذي تصوره الآيات.

سيتكرر طلب وسيلة غير العقل للوصول إلى الإيمان، وسيستمر القرآن في الإحالة إلى الكون لمعرفة الخالق.

هل الإنسان فاعل ومسؤول ومُجازى عدلاً؟

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٥٧ ـ ٦١].

كانوا أنفسهم يظلمون، نغفر لكم خطاياكم، فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، استسقى موسى، لن نصبر،

أتستبدلون. . .؟ هكذا يتبين الفعل الإنساني الاختياري؛ فالناس تختار الظلم، والله لا يظلمها بل يجازيها على الظلم، والخطايا خطايا البشر والله يغفرها، والإنسان يختار أن يعصي ويُبدّل الأوامر والله يعاقبه على فعله. هكذا يرسم القرآن معالم كبرى في تصور إرادة الإنسان وفعله، ونحن هنا سنسير مع القرآن في بناء التصوّرات حول الفعل الإنساني.

ومن هذه اللمسة نعرف أن فعل الإنسان ابتدائي، وعقوبة الخالق هي فعل مقابل، فلا ظلم ولا عدوان، الأمر واضح وبسيط ولكنّ العقل المسلم لن يستمر على هذا الفهم الواضح لعلاقة الإنسان بالعمل. وهي ملاحظة، وإن بدت بدهية ويصعب القول بغيرها، فالإنسان فاعل على الحقيقة في كل هذه الأحوال، ولكنّ البعض ـ في المسار الإسلامي التاريخي ـ سيجد تفسيراً آخر ليس هذا وقت مناقشته، ولكننا في هذه الآيات سنكتفي فقط بوضوح تلك العلاقة في النص القرآني وتضافرها، بحيث تُكوّن ذلك الخط الأصيل الذي يُرد له أيّ استثناء إن وجد.

قواعد النجاة المُطّردة في القرآن

- **قواعد النجاة الثلاث**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦٢].

والسؤال يطرح نفسه بقوة: ما المعيار الأساس الذي يتم به الحساب يوم القيامة؟

هذه الآية قد نزلت في أصحاب سلمان الفارسي كما أخرج الواحدي عن مجاهد قال: لما قصّ سلمان على رسول الله (ﷺ) قصة أصحابه، قال: «هم في النار»، قال سلمان: «فأظلمت عليّ الأرض»، فنزلت: «إن الذين هادوا...» قال: «فكأنما كُشف عني جبل».

واليهود هم اليهود، قبل البعثة وبعدها، والنصارى هم النصارى قبل البعثة وبعدها، والصابئون قوم عبدوا الكواكب والملائكة ولهم وجود في العراق اليوم، وقيل إن لهم بقايا كتاب سماوي مع كل هؤلاء يضع الحق ميزاناً واحداً للجميع، وهو الثلاثية التي تكلّمنا عنها في الفاتحة (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً)، تلك إذاً أمهات القضايا وروح الدين. إن السؤال المنطقي الذي يطرح نفسه: ماذا عن الإنسان الذي عمل صالحاً ولم يتطلّع إلى خالق ولا إلى آخرة، وهم كُثر في هذه الحياة؟ ما مصير هؤلاء؟

ومنهم من استفرغ الجهد في محاولة التوصّل إلى الحقيقة ولم يدركها، وهناك من لم يهتم بسؤال الحقيقة.

هل نستطيع أن نجيب عن السؤال؟ بدا لي أن السؤال ينقسم إلى قسمين، **الأول**: متعلق بالدنيا، وقاعدة الدنيا هي: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. فمن عمل في الدنيا نال نصيبه منها لأنها وُضعت بقوانين محسوبة لا تتخلف ولا تحابي أحداً: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]. فمن أحسن في صياغة المجتمع والحرية والعدل والمساواة والصناعة والزراعة والتجارة وسائر فنون الحياة، كوفئ على عمله

في الدنيا بقدر ما عمل، ومن لم يعمل عوقب بقدر ما قصّر، بغضّ النظر عن موقفه الإيماني. أما في الآخرة فهي لمن تحققت فيه الشروط الثلاثة الكبرى: آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً. الثاني: بقي من استفرغ الوسع في البحث عن الحقيقة ولم تستقر نفسه على شيء، فهو في رحمة الله وعدله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

إن الحياة ملأى بالأسئلة حول أنواع البشر المحتملين؛ فهناك من لم تبلغه الدعوة مطلقاً، وهناك من سمع عنها وهو بعيد فلم يلتفت، ومنهم من رأى واقع أهلها فساء ظنّه فيها، ومنهم من عُرضت عليه عرضاً سيئاً فرفضها، ومنهم من هو باحث مُتفكّر يبحث عن الحقيقة ولم يبلغها بعد، ومنهم من بَلَغَتْه صحيحة وقامت عليه الحجة فجحد واستكبر واختار الكفر، هل كلهم بالمقام نفسه ولهم الجزاء نفسه؟. هنا تأتي قاعدة القرآن الكبرى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. إن القرآن يُفسّر بعضه بعضاً، تلك هي القاعدة الكبرى، وهو حين يقول أن لا ظلم عند الخالق، فذلك معنى لا يستثني أحداً.

كيف تُولد التقوى؟

أساس التقوى الجدية والسعي للفهم العميق للدين:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ * فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [٦٣ ـ ٦٦].

كيف يستفيد الإنسان من الدين؟ وكيف يعطيه الدين ثمراته الكبرى؟ فالناس يدخلون الأديان والغالب اليوم أنهم يولدون بها، وهي شيء من الموروثات واعتقاد تم تبنيه من غير دليل وبحث، وهي أمر يكفي فيه أن البيئة التي تحيط بالإنسان تؤكده وتجعله جزءاً من هوية الإنسان. وهي مُعطى من معطيات البيئة، وأحد مكونات الثقافة، كالفن واللغة، قد يتعصب له الإنسان كما يتعصب لعَلَم بلده، وقد يحمل كتابه كما يحمل شارة الوطن بكل إجلال وفخر، ولكنه في الوقت ذاته ليس جزءاً مُفكّراً فيه، وليس وعياً مستقراً عميقاً تم تشكّله عبر التفكّر والتأمل والبحث والمقارنة والاختيار، ولذلك تجد حديث العهد بالدين الذي درسه على مكث واختاره بوعي ليُشكّل مصيره، تجده في غاية التمسك به، خلاف من وُلد عليه في الغالب، ذلك الذي ألفه كمُعطى بيئي، وليس باختيار ووعي.

وهنا تبدأ الآية الأولى بأمر التمسك بالدين بقوة، ليس كتعصب في المنافحة، ولكن للعيش به سلوكاً وخلقاً: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، فالتعصب فعل غاضب وحميّة في الجوهر قد تشمل الدين أو أي مُعطى بيئي آخر، هو يحدث في وجه الآخر المُخالف، والتمسك والممارسة فعل واعٍ قاصد يقود الحياة ويصنع المصير، سواء أوُجد المخالف أم لمْ يُوجد.

حين يأخذ الإنسان الدين باعتباره سؤال المصير، ويتفكّر فيه، عندها تترابط الدنيا بالآخرة في وعيه، فإذا به يتذكره في الرضى والغضب، ويلتزمه سلوكاً معاشاً. وحينها ينتفع بالقَصَص القرآني، فقد تخلّقت التقوى في نفسه: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، عندها ينتقل من التقليد البيئي إلى الاختيار الواعي.

إن الدين ـ كما يبدو في الآيات ـ قد أصبح عِبئاً على جزء من بني إسرائيل، جزء من موروث مُقيّد سهّل عليهم أن يحتالوا عليه. وقصة أهل السبت هنا مثال لفريق من اليهود حرفتهم صيد السمك لقربهم من البحر، خالفوا أمر الله لهم بأن يكون يوم السبت يوم عبادة خالصة، فأقاموا الحواجز البحرية التي تُمكّنهم من حجز الحيتان التي تظهر في السبت، حتى يصطادوها يوم الأحد، فيحتالوا على المنع الإلهي بهذه الطريقة المكشوفة.

وما ظهور ما يُسمى بالحيل الفقهية إلا بسبب استشراء هذا النوع من المرض، حين لا يعود الدين اختياراً واعياً بل عبئاً اجتماعياً، لا تترابط فيه حلقات الدنيا بحلقات الآخرة، وبالتالي ـ بما أنه عمل من أعمال الدنيا ـ لا يعدم الإنسان حِيلة معه.

تحجّر القلب وخلل التصور

- **كيف يتحجّر القلب؟**

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۞ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۞ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ

وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٦٧ ـ ٧٤].

تصوّر مُختل

تصوّر العلاقة بين الخالق والمخلوق عند بني إسرائيل مُختلّ، وتصورهم للعلاقة بأنبيائهم مُختلّ وطابعها الكِبر.

سوء أدب الخطاب

لم يكن غريباً أن يُولّد ذلك خطاباً يفتقد الأدب مع أنبيائهم.

خُلق المماطلة والتسويف

سلوك يتناسب مع نفسية الكِبر، فكل توضيح يتبعه سؤال.

زوال آلية الاعتبار

غياب التدبر في الماضي، والاعتبار من الأخطاء.

طول الزمن

عندما يطول الزمن بقوم، تتحول تلك النفسية والسلوكيات إلى واقع معتاد.

قسوة القلب

نتيجة حتمية لسوء التصور، وسوء الأدب، وزوال آلية الاعتبار.

حراسة الحقيقة أم سجنها؟

- **حين يصبح حرّاس الحقيقة سجّانيها**

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٧٥ ـ ٧٧].

عندما يتحول أصحاب الدين وحرّاس الحقيقة إلى سجّانين للحقيقة، يتواصون بكتمانها، تصبح هناك ظاهرة حَريّةٌ بالدراسة؛ فهؤلاء مجموعة بشرية تُعلّم الحق، وسمعت كلام الله، وتَعلم أنه كلام الله، ولكنها تستبيح لنفسها أن تُخفي الحقيقة حتى تفوز في تنافس مع معسكر آخر، هنا لا تهم الحقيقة ولا يهم الخُلق القويم، فالمهم هو الفوز. هنا ينسى هذا الفريق رقابة الله (ﷻ) ويعتقد أنه يتآمر للتقرب منه أو للفوز المُنفرد به، ناسياً علمه المحيط. والسؤال عندئذ: كيف تتولّد هذه الحالة بين طبقة من رجال الدين؟ كيف يجتمع الضدان: التدين وأخلاق الكذب والنفاق؟ لِمَ لم يُفكر هؤلاء في أنهم حُرّاس الحقيقة؟ لِمَ لم يُفكّروا أنهم مُستأمنون عليها؟ لِمَ لم يُفكّروا في صدق قائلها؟ لِمَ لم يتذكروا اطلاع الله عليهم وعلى ما يُدبّرون؟ لِمَ لم يُناقشوا منطقهم ويروا عواره؟

هل نرى صراع الفرق الإسلامية اليوم، ونرى كيف يتم التعامل مع الحقيقة؟ إننا نرى الظاهرة وهي تتحرك في سياقات أخرى، ولكن بالمواصفات ذاتها. تعلم الحق ولكنّها تحرفه عن معناه. تُخفي من الأدلة ما يُبطل دعواها، وتضع على لسان

الدين ما ينصر دعواها. تعتقد أنها تتقرب إلى الله بفعلها، والحقيقة أنها تزداد بُعداً عنه، وهو الحق وراعي الحقيقة! سلوك يعجز الإنسان عن تفسيره ولا يجد له وصفاً سوى أن أنوار القلب تخفت إلى درجة لا يعود بوسع هذا الإنسان رؤية خطأ الطريق والمنهج.

هو قد ينتصر في الدنيا إلى حين، لكنه - قطعاً - لن يدوم له الانتصار بالباطل، وهو إن لقي الله فهو على خطر عظيم، والقرآن هنا يُسلط الضوء على هذا المشهد من حياة التدين المغلوط.

إن الوسيلة الوحيدة لمواجهة مثل هذه الحالة لا تتم إلا بالمراجعة المستمرة للأفكار، والاستماع للناصحين، بل والانتباه لما يقوله أشد المنتقدين، وعدم الانكفاء على النفس؛ فالفارق بين الدين والتدين يجب أن يكون واضحاً منذ البداية، حتى لا تلبس أفكار البشر ثوب العصمة، ويصبح النص خادماً لها، فبدعوى خدمته تحجب حقيقته.

استغلال توقف العقل

الأُمّيون هنا ليسوا مجرد بشر لا يقرؤون ولا يكتبون، فقد كان هذا حال معظم البشرية في أغلب العصور، بل كان ذلك حال أهل أمة الإسلام حين البعثة، ولكنها هنا حالة التوقف عن التفكير والطاعة العمياء لسلطة الكهنة ورجال الدين، حالة تسليم للعقل والمنطق، وهي حالة متكررة في كل الأمم، فذلك ما كان يفعله كهنة الأصنام مع عرب الجاهلية، وحين تفكّر البعض في أن لهم عقولاً انبلج فجر الحقيقة.

الأُمّيون والعلماء الذين يستغلونهم

مشكلة كل دين تكمُن في: جموع من العوام تُصدّق، وعلماء يفتقدون الورع.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۞ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [٧٨ ـ ٧٩].

البشر هم البشر، غالبية تفتقد الرشد، علمها بالكتاب المنزل قليل، حين يفتقد العلماء الورع والاستقامة يتلاعبون بالحقيقة، وهم حُراسُها، هؤلاء المُحرّفون لكلام الله، المُتلاعبون بالنصوص، لمكاسب الدنيا والسمعة والجاه، إنما يحصلون عليه من مردود دنيوي، وإن بدا لهم كبيراً فهو صغير في ميزان الله والحقيقة، ولا يجنون منه إلا الخلود في العذاب (الويل)، وكسبهم في الدنيا لن يساوي خسارتهم في الآخرة.

والتلاعب بالنصوص، وتصوير الأمور على غير حقيقتها، وقول نصف الحقيقة، وإخفاء المعلومات بدعوى المصلحة، كل ذلك وسائل تتبعها فئات من أهل العلم عندما تفسد، وذلك يكون في كل حالات الزمن؛ الماضي والحاضر والمستقبل.

ومشكلة كل دين هي الجموع التي تُصدّق ما يقوله الأحبار والرهبان، وليس لهم طريق إلا ما يقوله هؤلاء وما يصنعونه من أباطيل، وعلم العوام هو علم لا يتجاوز الأماني والظنون، إنهم قوة تستخدمها تلك الفئة المتحدّثة باسم الدين، وتوجهها بالطريقة التي تشاء، بادّعاء التحدث عن النص. إنها تلعب على أماني

الناس وأشواقهم الروحية، وتستغل تلك الحاجة عند الإنسان البسيط للطمأنينة على مستقبله في الدنيا والآخرة، تبيع له مقولاتها وهو يظن أنها حقائق، فما يعلمه هو ظن يحتاج إلى تحقق، وهذا الإنسان لا يمتلك قدرة على التحقق وهو ضحية الجهل.

أما ذلك الصنف الذي ظاهره التدين من أهل العلم هو الأشد غفلة عن الله، فهو يخفي الحقيقة منتظراً مكاسب الاتباع وغافلاً عن لحظة اللقاء الكبرى مع خالقه.

صناعة الأمن الزائف

حين يقول القرآن: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فلأن آفة الأماني تنتشر بين كل البشر، هي مطلب تميّز غير مُستحق يصنعه الوهم، وهو عنصر يُزيل ذلك الشعور بقلق المسؤولية عن الفعل والاختيار.

أمن زائف من استحقاقات القيام بالتكليف

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [٨٠ ـ ٨٢].

إن أمنية الإنسان بالاستثناء سكنت عقول كل الديانات، شيء ما يُصور للإنسان أنه مختلف، وأنه مهما ارتكب فوضعه مع الخالق مختلف عن بقية الخلق.

ها هنا مقولة ساقها اليهود، وربما بقية أصحاب الأديان: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾، عند اليهود كانت أربعين يوماً وهي مدة عبادتهم للعجل؛ إذ بغضّ النظر عن سلوكهم في الحياة الدنيا فأقصى مدة للعقوبة محددة. وبما أن النهاية هي الجنة والسعادة الأبدية، فعند هؤلاء القوم وأمثالهم، لهم أن يفعلوا في الدنيا المعصية، وهم مستعدون لعقاب بسيط عليها يوم القيامة ثم مردهم إلى الجنة، وهو سياق من الفهم قابل للتكرار في كل العصور والأمم.

حين ننظر إلى أطروحة اليهود وكأنهم قالوا: وعلى فرض وجود النار فلن تتجاوز عقوبتنا الأربعين يوماً وهي مدة عبادة العجل، المهم فكرة الأفضلية والميزة الخاصة التي يعتقدها قومٌ ما بأن لهم استثناء خاصاً عند الله. والذي يظهر في الآية حجم من التغليظ كبير، وسؤال فيه تحدٍ، أين يوجد هذا الموثق من الله الذي تدّعون؟ بل إنكم تتقوّلون على الله بغير علم.

ليس صعباً على اليهود في كل الأحوال كتابة شيء من ذلك في شروح كتبهم أو تلمودهم، ولكن بالقطع ـ وفي تلك اللحظة ـ ليس في توراتهم شيء من ذلك يشهد لهم بهذه الميزة.

وهنا مشهد من تصورات الإنسان الفاسدة عن علاقة الخالق بالمخلوق: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، دعوى القرب والبنوة والمحبة من دون استحقاق، هي وهمُ المخلوق، وطريقٌ للتفلت من تكاليف العمل بموجب الأمر، إنها أمن زائف من العقاب.

والخطاب متعلق باليهود المُنكرين الجاحدين للنبوة المُحمدية، من بعد ما استبان لهم الحق فانكروه جحوداً. ذلك الأمر بيّن، فهو كفر وجحود، لا يختلف اثنان في أنه مُلقٍ بصاحبه في النار خالداً فيها، ويبقى الجدل حول مرتكب الكبيرة هل هو مشمول بالوعيد؟

هنا يأتي قول الله (ﷻ): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ليضيف بعداً آخر للصورة في رجاء رحمة الله وسعة فضله بالعصاة والمذنبين الذين ماتوا ولم يدركوا التوبة وكانوا يرجونها.

وفي مقابلها يعيد القرآن مرّة أخرى التذكير بشروط النجاة الثلاثة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، تلك هي الحقيقة التي يريد تثبيتها من دون أوهام وظنون.

الوظائف الاجتماعية للتدين

• الوظائف الاجتماعية ومركزيتها في الدين

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [٨٣].

لقد كانت رسالة الأديان الكبرى الاجتماعية واحدة، وهنا تُبرز الآية عناصرها الكبرى:

• إخلاص التوجه لله.

• الإحسان (للوالدين والأقارب، لليتامى والمساكين، الإحسان في القول).

- الصلة بالله.
- الصلة بالإنسان أو الزكاة.

يبدو واضحاً هنا توجه التعاقد إلى الإصلاح الاجتماعي؛ فعندما يملأ الإيمان القلب شعوراً برحمة الله وإيماناً بيوم الحساب، تُبنى اللبنة الأولى والأساس المتين لكل خير. وعندما نقول تُبنى، فإننا لا نتكلم عن ذلك التلقين التكراري الذي ألفناه بل نتكلم عن ذلك التفكّر العميق الذي يجعل القلب موصولاً بالله، ويتخلل النفس شعور بيوم الحساب، عندها تتولد حالة من مراقبة كل فعل ليس فقط للقيام به، بل للقيام به على أتم وجه، وذلك هو المعيار الحقيقي الخارجي، لدرجة تشبع النفس بالتوجه إلى الله.

هنا بدأ القرآن بالعبادة لأنها معنى واسع يشمل كل ما بعده؛ فكل عمل قاصد إلى الله داخل في العبادة، ها هو الإسلام يتّجه إلى المعنى الاجتماعي من مدخل واسع هو العبادة، ثم يتفرّع في أشكال الإحسان للوالدين والأقربين، ويجعل مكاناً واسعاً لحسن القول واختيار الألفاظ.

حفظ الدماء وظلم التهجير

- **حفظ الدماء والأوطان**

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [٨٤ - ٨٦].

تبدو مهمة حفظ الدماء ومهمة رعاية حقوق المواطنة ذات أهمية خاصة. وإن المجتمعات التي لا تستطيع أن تدير نسيجها الاجتماعي، ولا تجد آليات سلمية لحل النزاعات الداخلية، لعلى خطر عظيم، والقرآن يجعل ذلك عهداً مع الله.

إن كل أمة تفشل في إدارة شأنها الداخلي وسلامها الاجتماعي، هي على خطر عظيم يرفعه القرآن إلى مستوى تهديد الوجود، فهو مُؤذن بالهلاك في الدنيا، وبالنسبة إلى أمة حاملة للدين فإنها خسارة للآخرة والدنيا.

البنية النفسية للمتلقين وطبيعة الحجاج

• البنية النفسية وموقف وحجج

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ

غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ * قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ * وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۢ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٨٧ - ١٠١].

إن القرآن يلفت نظرنا إلى البنية النفسية التي تتنكر للحق، وهي هنا بنية لها خاصيتان:

- الميل إلى الهوى.
- كِبر واستعلاء.

آفتان هما جوهر الشرور: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، والهوى هو نوع من الاختيار المسبق، الحب والبغض المسبق، لا يستجيب صاحبه للحقيقة ولا لمنطق العقل، ويستعلي على قبول الحق، وهو لا يرى للآخر قولاً ولا حقاً ولا فضلاً، هو تضخم للذات ونظرة دونية للغير.

هذه النفسية عندما تتصاعد يمكنها أن تقوم بكل الفظائع وهي مرتاحة الضمير: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾. قتل الأنبياء بوصفهم ممثلي الحقيقة، يعد نموذجاً لأشد أنواع الفجور؛ فحين يُكذّب أصدق من في الأرض ويُقتل أطهر من في الأرض، ماذا يبقى من الخير؟ حين ننظر إلى فظائع البشر عبر التاريخ، سنجد عنصر الميل العاطفي؛ الكره والحقد، وعنصر الاستعلاء والاستكبار، كل ذلك يجري في النفس؛ رغبات ومشاعر، وتصورات عن الذات وعن الآخر.

لكن حين نسمع صوت هؤلاء المستكبرين، نجد دعوى عريضة بأنهم الأعلم وأن خطاب الآخر لا يصل إليهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، وهو لا يصل إليهم بسبب داء الكِبر وبسبب الهوى، لا لضعف الخطاب وصدق القائل.

وفي موضوع الدين، في الحالة الإسلامية، رفض اليهود الدين الجديد للأسباب ذاتها؛ هوى، وكِبر، وحسد، أن يتنزل الخير على غيرهم من العرب: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾. تلك هي آفة الحسد ابن الكِبر؛ إذ كيف يتنزل الخير ويظهر ـ بزعمهم ـ على يد الأدنى، ولا يظهر على يد الأفضل والأعلى؟!

الإنسان والبحث عن الخوارق

• الأمة والبحث في الخوارق

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١٠٢ ـ ١٠٣].

حين تغرق الأمم في عالم مجهول من السحر والطلاسم، وتتشبث بالخوارق على حساب أكبر المعجزات، وهو الكون المشهود، والعقل المتدبر، وقوانين الكون القابلة للقراءة والبحث، وينشغل شيوخها بالمنهي عنه ويتركون المأمور به، يتولّد علم التخلف.

لماذا الحديث عن السحر في القرآن؟

إن حوارات المدينة فرضت ظهور الموضوع، فالقرآن يخبرنا عن سليمان (عليه السلام) الملك النبي. وسليمان هو ابن داود (عليه السلام)، وثالث ملوك مملكة إسرائيل قبل انقسامها، وسيدور جدل بين اليهود وأصحاب الدين الجديد حول سيدنا سليمان (عليه السلام)، فبعد ثناء القرآن عليه وعلى مملكته وقدراته ونبوته، رد أحبار اليهود بأنه لم يكن نبياً، ولكنّه ملك ساحر، ومن هنا روى القرآن علاقة سليمان بقصة السحر.

إن الرواية القرآنية تشدد على أن:

- السحر كفر، لأنه اتباع ما تتلوه الشياطين: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾.
- الشياطين هم من يعلمون الناس السحر.
- السحر عمل يتم للإضرار بالخلق: ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.
- السحر عمل ضار ولا ينتفع به متعلمه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.
- من يتعلم السحر لا نصيب له من الآخرة: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

ذلك تصوير القرآن للسحر والسحرة، والقرآن هنا حريص على صرف الناس بأقسى العبارات عن التشاغل بهذا الفضاء، لا تعلماً ولا تفكيراً.

عالم الألفاظ وخطورته

- **عالم الألفاظ**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [١٠٤ ـ ١٠٥].

الألفاظ والتعبيرات «راعنا» مقابل «انظرنا» يبدو الفارق ضئيلاً؛ فالأولى تعني في الظاهر: أعطنا سمعك وانتباهك،

والأخرى تعني: اتجِه إلينا وتمهَّل في إفهامنا، ولكن الأولى في سياق معيَّن قدح وذم، والثانية آمنة. هنا يبدو المجتمع المدني المسلم منساقاً حتى إلى نوعيّة التعبير اللفظي الذي يستخدمه اليهود في المدينة، وهو ما يفسر هذا الكمّ من الاستطراد القرآني لنزع الهالة عن المعسكر اليهودي... هنا يستخدم اليهود لفظاً مراوغاً ﴿رَٰعِنَا﴾، وهي عند العرب من الرعاية، وعند اليهود من الرعونة؛ فنهى القرآن المؤمنين عن استخدام العبارة التي يستخدمها اليهود، وأمرهم باستخدام كلمة «انظرنا»، وتعني انظر إلينا، وأقبل علينا نفهم منك ونفقه.

العالم اليوم متخم بالمصطلحات والألفاظ المُراوغة، والإعلام المعاصر يُبدع في كل يوم ألفاظاً مُلغّمة تحمل أوجهاً متعددة، وتُوجّه العقل بطريق الإيحاء في اتجاهات يريدها منشئ المصطلح، وعلى الإنسان أن ينتبه، والوعي بالمُشكلة هو أول الطريق.

وفي حين أن الماضي كانت فيه المصطلحات جزءاً من الصراع البسيط في البيئة، فقد أصبحت اليوم صنعة وأجهزة وجزءاً من الحرب النفسية، وجزءاً من توجيه العقول والأنفس في اتجاهات مُحددة.

والألفاظ هي رموز لتوصيل رسائل من طرف إلى آخر، وهي لَبِنات التفكير بعدها، وهي باستمرار في حالة تشكّل عبر الزمن؛ فلفظة الحجر مثلاً تعني بأصل نشأتها في العربية: الصخر، ولكن حين استخدمت في السياق الديني أصبحت آلة مرتبطة بالعذاب. فاللفظ هنا يستدعي معه مجموعة مفاهيم تُشكّل معه وحدة واحدة: عذاب.. سجيل.. نار.. خطيئة.. كفر..

وهكذا تبرز أهمية المصطلح كأداة لتوصيل رسائلِ أعمق من مجرد اللفظ. واللفظ قد يكون في ظرفٍ ما طبيعياً ومسالماً، وفي ظرف آخر عدوانياً وغير محايد، بل إن اللفظ ذاته قد يكتسب دلالاته من حالة القائل؛ فكلمة تفضّل قد تبدو كلمة جميلة مؤدبة من شخص هادئ يشير إليك نحو الباب ويدعوك إلى ولوجه. وهي ذاتها قد تعد كلمة غير مؤدبة من شخص غاضب يشير إليك نحو الباب للخروج منه، بل إن اللفظ قد يتبدل معناه الاصطلاحي بحسب المجال الذي يُستخدم فيه؛ فكلمة السنة تعني للفقيه شيئاً، وللأصولي شيئاً، وللمُحدّث شيئاً، ولراوي السيّرة شيئاً آخر.

النسخ عند المتقدمين وعند المتأخرين

- **النسخ تحدٍ كبير**

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٠٦].

من داخل الحقل الديني الذي تشكّل بعد انقضاء الوحي برزت فكرة النسخ؛ وهي فكرة لها آثارها الكبيرة على فهم الدين.

لقد استُخدم مُصطلح النسخ عند السلف وقبل وضع أصول الفقه بمعنى: بيان المجمل وتفسيره؛ فحين ترد كلمة الصلاة مُجملة في القرآن تأتي السنة الشريفة فتفصّلها، وتأتي بمعنى: تخصيص العام؛ كأن يُستثنى القاتل من الإرث إن قتل مورثه، أو تقيّد المُطلق، كتقييد الأمر بتحرير رقبة بأن تكون رقبة مسلمة، ولا خلاف على وجود ذلك.

ولكن القول بالنسخ بالمعنى الأصولي أي: أن يُنسخ حكم مستقر بحكم آخر متراخٍ عنه زمناً، فذلك يسيء للدين من زاويتين:

الأولى: هي تشويه جمال القرآن واتساقه.

ولننظر مثلاً إلى من يقول: إن هناك حوالى ١٢٤ آية قرآنية كانت تدعو إلى التسامح والصبر، قد نُسخت بآية السيف: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. وهو أمر غير متصور، وقول في غاية الغرابة؛ فكل آيات الرحمة عند هؤلاء هي مجرد ذرّ للرماد في العيون، لحظات ضعف اقتضت خطاباً مهادناً؛ فالإسلام عند هذا الصنف من البشر دين السيف الذي لا يكلّ ولا يملّ حتى يقضي على آخر كافر في العالم، أو يُخضعه للجزية، أو يساويه في التراب. فماذا يحدث للمفاهيم القرآنية عندما ننزع منها كل جمال، ولا يبقى منها إلا جانب واحد من الحياة البشرية، وهو بطبيعته استثناء بنص القرآن، تكرهه النفس ولا تُقدم عليه إلا مُضطرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. والمساحة الكبرى من الحياة هي إعمار الأرض، وفكرة النسخ هنا تقود إلى عكسها في هذا المثال.

الثانية: أن من أراد أن يطعن في الدين، سيجد مساحة واسعة لا داعي لتفصيلها.

ولذلك، فالقول بالنسخ بالمعنى الأصولي، هو خطر كبير

على صورة الدين ومحتواه. وليس هنا حاجة إلى نقاش الأدلة، فهي مناقشات يمكن الوصول إليها في مظانّها، وبحوثها منشورة في الكتب، وخلافها مشهور بين مُوسّع ومُضيّق، ومثبت ومنكر.

أما الآية التي بين أيدينا، فقيل في تأويلها ما يُغني عن القول بالنسخ. وهو أنها تتناول نسخ الكتب السماوية السابقة بالقرآن الكريم.

العفو الحقيقي والعفو الظرفي

• العفو والصفح والعبادة والإنفاق

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١٠٧ ـ ١١٠].

هنا قضية كبيرة تتعلق بمستوى العفو والصفح أو التجاوز وعدم المؤاخذة، والقرآن يطالب المؤمنين بالصفح عن أهل الكتاب الذين يُريدون أن يصرفوا المؤمنين عن دينهم، ويعلل الأمر بحسدهم للمؤمنين على إيمانهم، والتفاسير ترى أن ذلك كان ـ فقط ـ بسبب أوضاع المسلمين، وأن آية ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ تعني أن ذلك تأجيل لحين مجيء أمر بقتالهم، والنص مُحتمل، ولكن ماذا لو كان معناه أكبر من فكرة التغاضي

والتمرير، وأن المقصود هو عين اللفظ، أي العفو والصفح الحقيقيين؟ وأن معنى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: ليوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وأن مقام الدعوة يتسع للمخالفة وما هو أكثر منها، ويتّسع للمخالفين ما لم يرفعوا سيفاً أو يخرجوا المؤمنين من ديارهم، وأن واجب المسلم هو العفو والصفح عن المخالفين، بغض النظر عن نواياهم ما دام الأمر أمر دعوة وحوار، وأن الأمر بالقتال لا يأتي إلا لصد عدوان، وأن مبدأ العفو في القرآن سائد على ما هو أكبر من ذلك، فالله في ما مرّ بنا عفا عن بني إسرائيل مع تكرار المعاصي والإعراض وكثرة المعجزات.

- **والمؤمنون مع العفو والصفح عليهم**

إحسان الصلة بربهم والإنفاق من أموالهم على الخير؛ ففي قلب المعادلة يوجد هذان الأمران اللذان لا يكلّ القرآن من تكرارهما، صلة بالله وصلة بالخلق.

غرور الأماني

- **هل نتمنى ونقعد عن العمل؟**

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ❋ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ❋ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [١١١ ـ ١١٣].

رغبة البشر بالاستئثار بالجنة وخاصة أهل الأديان تظهر في هذه الآيات، ويصف القرآن ذلك بأنه محض أماني؛ فالجنة يدخلها كل من أسلم وجهه لله وهو محسن، أي: من آمن وعمل صالحاً؛ فالله (ﷻ) لا تعنيه الأسماء، ولكن يعنيه الإيمان والعمل الصالح، وتلك هي المعادلة التي لا يفتأ القرآن يكررها؛ الإيمان، والعمل الصالح.

وفي الجزيرة العربية كانت تدور معركة جدل طاحنة بين يهود المدينة ونصارى نجران، والآية تعبِّر عن هذا الصراع: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ...﴾، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾. هذا، والفريقان يقرآن في كتبهم الأصول المشتركة للديانات السماوية، وهذا معنى كبير؛ فأصحاب الكتب السماوية بحسب القرآن مشتركون في أمهات القضايا الدينية، وهو أمر يجب أن يقفوا عنده في علاقاتهم البينية.

والواضح أن هذا حاصل بين كل البشر في تقريراتهم الاعتقادية، فما الذي يعيبه القرآن هنا أو ينبه عليه؟ أهو قولهم: ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ بالمطلق، وكان يجب أن يعترفوا بالمشترك السماوي أولاً ثم يختلفوا فيما دونه؟ أم أن القرآن نظر إلى مترتبات الخلاف العملية والسلوك الناتج من التقريرين، وهو ما يمكن التحكم به والتركيز عليه؟ القرآن يعطينا البوصلة الكبرى، فهناك مشترك سماويّ لا بد من الاعتراف به (الإيمان، والعمل الصالح)، وهناك حقوق وسلوك دنيويّ لا بد من العمل به، وهناك مُختلف لن تعرف حقيقته إلا يوم الحساب والكل يدّعيه في الدنيا: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أما مشركو الجزيرة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فقد ذهبوا إلى القول بأن كل دعاوى الأديان باطلة، وشنوا حربهم على الإسلام، والنص القرآني لا يتوقف هنا فهو يُعقّب: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١١٨]. هل المقصود بتشابه القلوب مجرد جزم كل فريق بخطأ الفريق الآخر؟ أم بالمترتبات السلوكية من القطيعة والحرب؟ أم لضيق القلب بالخلاف والمخالف وإنكار حق الإنسان في الاختلاف؟

قلت: إن الأقرب للفهم هنا ليس أصل الدعوى؛ فكل أصحاب الأديان يجزمون بصحتها وبأن مصيرهم الجنة ومصير غيرهم النار، ولكن مترتبات الموضوع في الدنيا هي الأخطر. وأخطرها العدوان المتبادل بكل أشكاله، ومفارقة العدل، والله أعلم.

تلك نقاط في غاية الخطورة تثيرها الآيات على قصرها.

الإسلام ومنظور دور العبادة

- **قاعدة دور العبادة**

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [١١٤].

مساجد الله، مكان مخصص لعبادة الله، مكان لرحلة الروح واتصالها بخالقها، هي مناطق لذكر الله، ومنع الناس من الوصول إلى دور عبادتهم خراب لها.

دور العبادة على مدار التاريخ يعمُرها الناس للذكر، وعلى الرغم من وضوح الآية وأختها: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم

بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]. وسمو المقصد الذي يتسق مع روح الإسلام وسلوك الحضارة الإسلامية، نجد من يتأولها على غير وجهها، ليقصرها على زمان دون زمان، أو ليصرفها لدين الإسلام وحده. فقط حين يرتقي الفهم إلى مستوى الشعور، بمعنى «رب العالمين» تستوي الرؤية الإنسانية للإسلام. ومنها وصية أبي بكر لجيش أسامة (ﷺ): «سوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له». والتوجيه البكري متسق مع روح الإسلام التي تشرّبها من القرآن، ومن صحبة خير الأنام، وهؤلاء الرهبان الذين يأمر أبو بكر (رضي الله عنه) بتركهم لِما فرّغوا أنفسهم له، سواء أكانوا على مقولات لا يرضاها الإسلام في حق الله ولا في حق المسيح إلا أن جوهر ما يريدونه ـ وإن أخطؤوا السبيل ـ هو التوجه إلى واحد أحد، وإن أخطؤوا التأويل.

واليوم نشهد من يسعى إلى تدمير دور عبادة المخالفين له بدعاوى عديدة، وكأنه لم يقرأ القرآن. ونسأل أنفسنا: كيف تغيب البيّنات الواضحات من الدين في حمّى الغضب، والقرآن يتهدّد من يقرب دور العبادة بأذى ويصفه بأنه ظالم، بل هو في أعظم الظلم؟ وأبو بكر (رضي الله عنه) يأمر الجيش في الحرب أن يترك دور العبادة آمنة، والحرب قمة الغضب، ولكنه الدين الخاتم ورسالة «رحمة للعالمين».

إن من لم يلتقط سورة الفاتحة وبداياتها، تضيع منه ثمار القرآن مهما علا حفظه لغيره، تلك هي البداية الكبرى لفهم روح الإسلام ووضع مسطرة الفهم عن قرب.

الكليات قبل الجزئيات

• كليات المسائل قبل جزئياتها

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [١١٥].

لقد تاه المسلمون وغير المسلمين من أهل الأديان في الجزئيات والتفصيلات على حساب الكليات، والقرآن هنا وهو يخوض بالمؤمنين معركة القبلة وتغييرها يعلّمهم معها نمط التفكير، فحين ندرك المعنى الأكبر والصورة الكبيرة نعرف كيف تترتب الجزئيات.

إن شخصية الدين الجديد كي تتكامل لا بد لها من هوية ورموز خاصتين، ومن هنا، جاء تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة والبيت الحرام.

والنقلة في غياب الكليات ستسبب إرباكاً كبيراً في الصف المسلم، وهي فرصة سانحة للمعسكر اليهودي والنصراني حينها في إدارة المعركة الإعلامية ضد الدين الجديد.

ولكن القرآن يُقدّم هنا الصورة الكبرى؛ فالمشرق والمغرب وكل الجهات لله وهو ليس في مكان من دون مكان، وصلوات المؤمنين تصله، وهو مُطّلع على قلوبهم فكيف بدعائهم وجهرهم.

فهنا يظهر دور ما يُسمى بالمنظور الشامل أو النظرة التفسيرية للكون، والقرآن يصحّح الاعتقاد ليفهم الإنسان فكرة العبادة على حقيقتها، فعلى الرغم من أهمية التفصيلات والإشكالات إلا أن التصور الشامل هو الذي يجعل الصورة

تتضح، وهنا الصورة الكبرى تقول إن الله هو «رب المشارق والمغارب».

فالأمر بالتوجه إلى جهة في الصلاة لا يعني أن بقية الجهات خلاء من نوره وفضله ووصله، هي آلية تنظيم ولكن صلاة المؤمن تصل إلى خالقه ولو فقد الجهات، وإن اتصال القلب لا ينقطع بتغيّر الجهة.

والقبلة وتغييرها مثال؛ فسيُطرح على المؤمنين سؤال من قبل المشككين: هل قبلتكم التي كنتم عليها كانت خطأ؟ وماذا سيحدث لصلواتكم التي توجهتم بها من قبل؟

ولكن معرفة الكلي الضابط تجيب عن سؤال وحيرة الجزئي وتضبطها؛ فالقبلة والجهات والأمر والنهي والتوجيه والرد كله من الله، والأمر كله له، وبهذا الفهم ينتهي الحوار فلا مجال للخطأ. فالحكيم وجه للأولى، والحكيم العليم وجه للثانية، وصلوات المؤمنين تصله في أي اتجاه صلوا ولا يضيع شيء عنده.

الصورة الكبرى تأتي أولاً، تلك هي الرسالة.

مفهوم كن وسؤال المخلوقات

- **سر المشيئة المطلقة والمنظور الشامل**

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [١١٦ ـ ١١٧].

إن مطلق الوجود ـ بما فيه وجود آدم وعيسى وبقية الخلق ـ

هو ناتج الإرادة والقدرة، فيكون الوجود بالأمر المستعلي: ﴿كُن﴾، وتكييف العلاقة بين الخالق والمخلوق وفق ما يصنعه وهم الإنسان ضلال، تلك ببساطة كانت عقدة الفلسفة القديمة التي لم تتخيّل خالقاً يخلق من العدم، فتصوّرت أنّ المادة قديمة قياساً على الإنسان.

إن ضلالات الاعتقاد، وسوء تصوّر الخالق، تحتاج إلى ضابط كليّ جامع، ومنظور شامل، يزيل اللبس لكل ذي بصر؛ ليس الله بحاجة إلى ولد ولا معين له في كونه، فهو مُنزّه عن كل حاجة، وهو موصوف بكل كمال، والمخلوقات كلها خاشعة بين يديه.

من يدّعون له من الأبناء ـ والسماوات والأرض ـ السرّ في وجودهم المشيئة الإلهية وكلمة «كن». إن حيرة الإنسان وضلاله وتأرجحه بين أفكار الأبوة والبنوة، والبحث عن شيء من الأفكار الحسيّة ليُفسر بها الوجود، هو خلل في المنظور الشامل.

سؤال الابن والشريك، سؤال ابتليت به الأديان السابقة ومشركو العرب على حد سواء؛ فعرب الجزيرة جعلوا الملائكة بنات الله، واليهود جعلوا عزيراً ابن الله، والنصارى جعلوا عيسى ابن الله. والله يخبرهم أن الخالق مُنزّه عن الولد، وأن كل المخلوقات خاضعة له: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، هذا الخضوع مُبرر في سياق أنه خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾. وأن كل المخلوقات من عالم الأمر «كن»، وأنّ تحقق الأمر سريع كحرف الفاء الدالّ على السرعة في العربية: ﴿فَيَكُونُ﴾.

إن المخلوقات كلها جاءت بكلمة «كن» الإلهية، فنسبتها

إلى الله هي نسبة المخلوق إلى الخالق، لا نسبة الابن إلى أبيه.

نقلة أخرى في غاية الأهمية في ترتيب المشهد الكلي للمتلقين الأوائل ولمن بعدهم.

عقل ذكي يقرأ الكون المعجز (بيّنا الآيات).

حين يلتقي القلب الذكي بالكون المعجز

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [١١٨].

سؤال مُتكرر منذ فجر البشرية، لا يفتأ القرآن يجيب عنه المرّة تلو المرّة. ولا يفتأ الناس في كل عصر يسألون عنه ويدورون حوله: «لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية»، والآيات تحيط بالإنسان من كل صوب وحدب، هي في نفسه وفي ما يحيط به من الذرّة إلى المجرة، يراها في صرخة الطفل حين ميلاده، وفي الأرض حين تنشق بالنبات، وفي السماء تنهمر بالمطر، وفي الشمس تبعث الدفء، وفي السماء تتلألأ بالنجوم، وفي الفلك تسبح في السماء، وفي البحار في سكون الليل وهدأته، وفي حركة النهار وضجيجه... كل شيء آية لا يلتفت إليها الإنسان، ويريد آية خاصة!

وتاريخ النبوات مع الآيات الخاصة غريب؛ فلا فيضان نوح أقنع ابنه أن يركب معه في السفينة، ولا ناقة صالح أقنعت قومه بوقف عدوانهم، ولا معجزات موسى غيّرت من طبيعة بني إسرائيل، إن الإنسان قادر باستمرار على أن يُعيد تفسير الوقائع

ليتشبث بما عنده: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥].

والقرآن يختصر المشهد كله: «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية... قد بيّنا الآيات». الآيات التي تعرض نفسها على الإنسان لا حصر لها لمن أراد الآيات، يدلهم العقل عليها وتدلهم الحواس، ويدلهم كتاب الله وهم عنها معرضون.

سؤال المعجزة سؤال كبير، طرحه عرب الجاهلية على الرسول (ﷺ): ليأتنا مَلَك من السماء يشهد لك بالنبوة، أو ليأتنا دليل حسي على صدقك، سؤال أجاب عنه القرآن بأن ذلك السؤال طرحه من سبق من الأمم التي ضلت، وتنزّلت المعجزات البيّنات عليها، وما القصة الطويلة عن بني إسرائيل، ولا قصص القرآن المكي عن الأقوام السابقة ببعيدة، وهي كلها لم تجْدِ شيئاً في بعث الإيمان.

المعجزات الحسيّة هي علامة لمن حضرها، محدودة بالزمان والمكان والأشخاص، ولا تزيد عند من بعدهم عن رواية من روايات التاريخ، أو حكاية تحتمل الصدق أو الكذب.

ولكنّ القرآن لا يريد للعقل المسلم أن ينطلق من تلك النقطة، نقطة المعجزة الحسيّة، بل يريد له إعمال مَلَكة العلم والتأمل في الموجودات، فالكون المحيط هو المعجزة الحقيقية التي تنتظر القراءة. وعندما يلتقي العقل الذكي بالكون المعجز ويتحاوران، ينتج الإيمان الحقيقي الذي يطلبه القرآن، فآيات الله ظاهرة مُبيّنة، تنتظر القراءة الصحيحة لمن يريدون الحق والاعتراف به.

والخلاصة الكبرى هنا هي أن معجزة الإسلام هي التقاء العقل بالكون، تلك هي المعجزة الدائمة للبشرية في رشدها.

مهمة الرسل للتدبر

• **وظيفة الرسل.. للتدبر**

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [١١٩].

البشارة والنذارة تلك هي مهمة الرسل، أمّا اختيار الناس فليس من مسؤولياتهم، ويحشد القرآن لتعضيد هذا المعنى آيات لا حصر لها: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ آيات كلها تقول رسالة واحدة: ليست وظيفة كلٍّ من الدين والرسل السيطرة على البشر بل هم أجراس إنذار بين يدي الساعة.

ولكن ماذا يحدث عندما يضيع هذا الفهم ويتحول الدين إلى أداة قسر وقمع؟ أداة تجسس على خلجات النفوس، بتفتيش للضمائر ومصادرة للرأي؟ عندها تولد أكبر مؤسسة للقهر باسم الدين، والدين منها براء.

هذا ما فعلته الكنيسة في عصور الظلام، فقد صادرت العقل والروح والجسد باسم المحافظة على الإيمان، وانتهى الأمر بالإنسان الغربي إلى طريقين لا ثالث لهما؛ إما أن يستسلم لسلطة القهر على روحه وعقله وجسده، وإما أن يحرر إرادته لحدودها القصوى ويكسر القيد.

وقاد التطرف إلى تطرف آخر هو الإلحاد، لقد أدّى ذلك السلوك المُغلّف بالدين، سلوك الوكالة عن الله وسلوك السيطرة على الخلق إلى نقيضه، وانتفض الإنسان لإنسانيته واستعاد حريته من سجّانيه.

تلك هي قصة الإنسان مع من يفهم الدين باعتباره وكالة عن الله، وسيطرة على الخلق، وليس باعتباره بشارة ونذارة، في جوهره.

وفي أيّ تنظيم للمجتمع يجب أن لا يُنسى هذا الكلي الحاكم.

الفرق بين الرضى والقبول

- **الرضى القلبي بين المختلفيْن متعذر**

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [١٢٠ ـ ١٢١].

الرضى حالة قلبية عليا من سكون النفس واكتفائها، وهي قدر زائد عن القبول؛ فالإنسان قد يقبل بحكم القضاء وينفّذه، وينفضّ النزاع ويقوم التعايش، ولكن ليس بالضرورة أن تستقر النفس ويقنع القلب، فذلك شأن الرضى.

وفي موضوع الأديان تترابط بعض مقررات العقل بكثير من العاطفة حتى يصعب التمييز بين الفضاءات، وتكون حالة عدم الرضى عن المخالف ـ خاصة في شأن الملة ـ متعذرة.

وظاهر الآيات صرف الرسول (ﷺ) عن الطمع في رضاهم، وقبولهم بالدين الجديد، وتحذيره من الركون إلى ما يقولون، ثم تركيزه على أن المؤمنين ومعهم القرآن هم أهل الفوز.

ولكن لنا أن نقول ـ متابعين ـ إن أحكام التعايش الكبرى لا تتم بمجرد رضى البشر عن بعضهم، ولكن بقبولهم العيش المشترك. وعلى ذلك، جاءت شرائع الإسلام المنظّمة لسلوك العيش المشترك، من إباحة للمصاهرة والنسب مع أهل الكتاب، وإباحة للبيع والشراء، وسائر أمور العيش، لأنها تقوم على القبول بالاختلاف.

(بنو إسرائيل) بوصفه مفهوماً، وجه الاختلاف أم وجه التماثل؟

● **لماذا «بنو إسرائيل»؟**

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [١٢٢ ـ ١٢٣].

نحن اليوم حين نقرأ قصة بني إسرائيل، لا نلحظ مسلكنا مع الحق ومنهجنا مع الحقيقة، وإنما نكتفي بالشق النفسي التقريري من تلك العلاقة، أي: إصدار الأحكام عليهم. والقرآن يلفت نظرنا باستمرار إلى التدبر والنظر، تلك هي مهمة العقل، لو أردنا الاستفادة من كتاب الهداية، ورؤية الوجه الآخر والأخطر لقصة بني إسرائيل، وجه التماثل لا وجه الاختلاف.

و«بنو إسرائيل» كواقع متجسّد يصفه القرآن شيء، وهُمْ كتجريد عقلي شيء آخر؛ ففي الواقع المجرد هم أحداث بعينها

ووقائع بتفصيلاتها، هم أمة بملامحها، ولكن حين ننظر إلى بني إسرائيل باعتبارهم تصوراً معيناً للحياة، وسلوكاً معيناً تجاه الحقيقة؛ عندها فقط نعيد اكتشاف عالم الإنسان في التوائه ومنعرجاته، وكيف يمكنه باسم الدين أن يمارس الموبقات ويزيف الحقيقة.

إن بني إسرائيل في القرآن هم نمط تفكير، ونمط سلوك، قابل للتكرار، في كل أمة لا تنتبه في علاقتها مع الحقيقة.

وهذا هو النداء الثالث لبني إسرائيل بعد الآيتين (٤٠) و(٤٧)، وهي تذكّرهم بنعم الله على آبائهم، وتنصحهم بأن يضعوا بينهم وبين عذاب الله حجاب الطاعة، وإلا فهم راجعون إلى الله، وستتحمل كل نفس مسؤوليتها، فلا ينوب أحد عن أحد، ولا تنفع حينها فدية، ولا تنفعها شفاعة الشافعين ولا نصرة الناصرين، إنه يوم تنعدم فيه حيل الدنيا ولا يبقى إلا العمل الصالح والموازين القسط.

يمكن فهم تمحور الخطاب المدني حول بني إسرائيل في سياقيْن: **الأول** قريب: وهو أنهم الفريق المقابل للمشروع الديني مباشرة في المدينة، فهم أهل كتاب، وبالتالي فإحلال شرعية دينية جديدة لا يمكن أن يتم في الحيز ذاته إلا بإخراج الأولى من قواعدها، وبيان فضل الثانية عليها. أما السياق **الثاني** وهو الأهم، فهو أن بني إسرائيل ـ كقصة للعبرة ـ يمثلون كل نقائص وتقلبات النفس البشرية بصورة فاقعة، ودراستها ليست لبيان خطئها وخطيئاتها، ولكن لرؤية الذات المؤمنة الجديدة واحتمال وقوعها في المسالك ذاتها.

- **تقرير: لا ينال عهدي الظالمين**

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [١٢٤].

إن وراء طلب إبراهيم وتعقيب المولى جل وعلا: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، مشهداً كونياً طويلاً ممتداً إلى أمم تريد قيادة البشرية، وتنصّب نفسها في محل القدوة والريادة، ومنها بقايا أمة الإسلام اليوم، ولا تتساءل عن فكرة العدل والظلم.

تلك هي القصة، الإمامة مرتبطة بمجانبة الظلم، ولكن ما أنواع الظلم الذي يمكن أن يمارسه الإنسان؟ حين ننظر إلى قائمة الظلم، نجد الحروب العدوانية ووراءها أفكار الاستعلاء، وامتلاك حق العدوان، تحت شتى الذرائع. ونجد القوانين الظالمة، وفساد القضاء، ونجد فقدان آلية التقويم الاجتماعي والاعتداء على جمال المجتمع. ونجد الظلم في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والقانون، ونجد الظلم في السلوك والأخلاق، ونجد الظلم في العبادات والشعائر، ونجد الظلم في الاعتقاد والتصور.

ها هو رب العزة يختبر عبده إبراهيم، بأن يأمره وينهاه، وإبراهيم من جانبه استجاب ووفى، وبالتالي استحق أن يجعله الله للناس قدوة (إماماً)، وقد استحق ذلك بنجاحه في الاختبار الرباني، ولكنّ إبراهيم يمد نظره إلى ذريته ليحصلوا على منصب الإمامة والقدوة وراثة، ولكن رب العزة يضع الأمور في نصابها ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، إن عهد الله بالإمامة هو منصب لا

يصلح له من يتلبس بالظلم، والظالم شخص متجاوز للعدل، والعدل شرط القدوة الربانية.

والحديث هنا عن إبراهيم كجذر للنبوة وأساس للصلاح، وإبراهيم ـ على فضله ـ يطلب من ربه امتداد إمامته بالوراثة لأبنائه، ورب العزة يشترط أن لا يكونوا تاركين للحق معرضين عنه (ظالمين). وبنو إسرائيل في لحظة الوحي ـ وهم يدّعون الوراثة الإبراهيمية ـ مستقرون على الظلم. فهم لا حق لهم في وراثة إبراهيم، تلك هي القضية التي يعالجها النص في ظاهره.

ولكن عمق النص يقول لنا إن الإمامة لها استحقاقات، أهمها مجانبة الظلم.

بيوت الله

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [١٢٥].

- **بيت الله**

هو ليس لقومية ولا لعرق ولا لحزب ولا لمذهب، هو لمن أراد عبادة الله وحده، مفهوم بسيط ولكنّه عميق، والبيت هنا هو البيت الحرام، ولكن كل مسجد لله فهو بيته، هو مكان للوحدة والتوحد في القبلة، وفي الصف، وفي مطلب الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

- **أمن**

هو مكان يفر إليه الناس ليلقوا السكينة والراحة من رمضاء

الحياة، وهو ليس مكان للصراعات، وهذه قضية في غاية الخطورة، ونحن نرى الصراع في المساجد وحولها بحجة الدين ذاته.

• طهارة

إن طهارة بيوت الله من الأدناس الحسيّة، وشيوع النظافة والنظام والترتيب فيها، أمر في غاية الأهمية، فلا يصح أن تلتقط الحواس فيها ما تنكره، وفي بلاد الإسلام القائمة اليوم تُبنى المساجد، ويقع الإهمال في مرافقها ونظافتها المادية، واللافت للنظر أن هذه المهمّة المتعلقة بالبيت مهمة كبرى يجب أن تُسند إلى أعظم الخلق.

إنها مهمة تَخلُق إمامة في الناس، وهذه تعني استعدادات نفسية وعلمية معرفية. فإلى من تُسند مساجد المسلمين اليوم؟ وأيّ معايير ومرتبات ومكانة تُعطى للأئمة؟ كيف يتم اختيارهم وتدريبهم؟ وكيف تقزّم الدور؟ وكيف يُنظر إليه اليوم في الواقع المعيش؟ كيف لنا أن نتقدم، ومصادر التوجيه اليومي والأسبوعي التي يحتك بها المؤمن ضعيفة، ونحن لا نقدّر الدور وخطورته؟

والمسجد هنا هو مثابة للناس، ومنطقة يرجعون إليها ليجدوا الأمان والراحة، فكيف بها حين تصبح مكاناً للحزبيات والصراعات والتدافع بين المؤمنين؟ ولا يعود المؤمن في ضوء هذه الفرقة يعرف أهو ذاهب إلى حزب سياسي أم إلى موجّه ناصح للمؤمنين؟

ها هنا إبراهيم الأب وابنه إسماعيل، الإمامان المبجلان، يقومان بتلك المهمة الشريفة.

متاع الدنيا للجميع

• الإيمان والكفر ومتاع الدنيا

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [١٢٦].

الرزق يأتي الجميع في الدنيا، ولكنه قليل بالمقارنة مع الآخرة؛ فالكافر يستمتع بهذا القليل الزائل، والمؤمن يستمتع بهذا القليل وينتظره الدائم المقيم من الخير، ذلك هو الفرق، وهذا ما وجّه به الخالق عبده إبراهيم إليه.

والآن، عاد الأمر إلى تفكيك منظومة مشركي العرب، وتفكيك دعواهم بأنهم أبناء إسماعيل، وأنهم سدنة البيت والقائمون عليه. والقرآن هنا يثبت ويستثني؛ يثبت دعاء إبراهيم لأهل البيت بالرزق والأمن، ويستثني جعل هذا الدعاء مشروطاً بالإيمان بالله واليوم الآخر، وهي نقطة أخرى في غاية الأهمية تحدّثنا عنها سابقاً، فهي مرتكز الفكرة الدينية وعمودها الفقري وروحها وجوهرها. هي الدافع إلى فعل الاتباع، وللقيام بمهمة وقف الفساد ومهمة الإعمار، وهي روح الجودة والسباق إلى العمل الصالح، وتستثني الكافر من نصيب الآخرة. وتتفق مع سائر النصوص في أنه يمكن أن يستمتع بالحياة الدنيا، ولكنه متاع قليل إذا ما قورن بالنعيم المقيم والعذاب السرمدي.

وهي إجابة ضمنية لسؤال قد يدور في خلد المشركين يقول: ها نحن مستمتعون لم يمسسنا سوء، على الرغم مما يزعمه نبي الدين الجديد من كفرنا، ولكنّ القرآن يصلهم بدعوى

بقية بني إبراهيم؛ فكل من ظلم أو لم يؤمن فهو ليس من أتباع إبراهيم، ووحدهم من آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يجاوزوا حدود العدل مستحقون لدعوة إبراهيم. . تلك ببساطة هي القصة.

الكعبة إشارة إلى السماء والأرض

• الكعبة.. الدين والدنيا معاً = مسلمون

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [١٢٧ - ١٢٨].

إن نشأة البيت العتيق كأول بيت عبادة وُضع للناس ودعاء إبراهيم، هو في الوقت ذاته تأسيس لموسم تتبادل فيه المنافع، وعلى مر التاريخ كانت مكة مكاناً تجارياً، وكان موسم الحج موسمَ عبادة واقتصاد في الوقت ذاته، ولم يعتقد أحد بتنافي الجانبين؛ فالعلاقة بين الدنيا والدين وطيدة في الإسلام، وهي تتجلى في فكرة البيت وموسمه الأكبر الحج.

وهنا ستتكرر كلمة الأنبياء الواحدة: مسلمين، مسلمون، أمة مسلمة، ذلك هو جوهر الموضوع منذ إبراهيم، صحة العلاقة بالله.

الرسل والتعليم

• وظائف الرسل الكبرى

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [١٢٩].

• البلاغ

التلاوة هي إسماع الآخرين الذكر، هي بلاغ بالتنزيل؛ فالدعوات هي خطاب يطرق الأسماع، ينبهها، يلفت نظرها إلى موضوع وقضية، هي مرحلة قبلية لأي داعية يريد أن يوصل رسالته، ومرحلة طويلة من العناء حتى يؤمن بها الناس.

إن تبليغ الدعوات التي تهز أعماق الأفكار الراكدة، وتواجه تلك الأفكار المستقرّة التي اكتسبت قداسة غير مستحقة، هي المعركة الكبرى. والمعركة الأشرس عندما تلتقي الأفكار الحية ببيئة الركود ومؤسساتها، فحينما يبدأ تحلّق المتطلعين إلى فجر جديد حول الفكرة الجديدة، تبدأ نقطة الانطلاق الكبرى.

• يعلمهم الكتاب

إن الكتاب ليس كمية أوراق أو رموز وإشارات، هو قيم ومبادئ وتوجيهات، وحين نغوص في الكتاب نكتشف فلسفة الحياة الأرقى والأسمى، ننظم أفكارنا نشذّبها، ليس سرداً أو حفظاً لكمية أحكام؛ إنه تغيير كامل على مستوى الوعي العميق بكل ما تحتاج إليه النفس للتعامل مع متطلّبات الإعمار.

• تعليم الحكمة

إن كانت الحكمة وضع الشيء في محله، فالحكمة هنا تنزيل الكتاب في الواقع بما هو أصلح له، أو بالتعبير الشرعي هو معرفة الحكم ومعرفة الواقع الذي سيتنزل فيه الحكم، إنه عمل أعقد بكثير من عملية التعلّم المجرد، هو في الجوهر تجاوز للميكانيكا الصماء في تنزيل الأحكام، هو عمل وتفكّر وتدبر، إنه الفارق بين إعمار الأرض أو فسادها.

● التزكية

وفي رحلة الإنسان في الحياة تنازعه النفس والشيطان، ويعتريه الفتور، وتعروه الغفلة، فكيف يجدد خلاياه، وكيف يحتفظ بمرآة نفسه نقيّة؟ كيف يحتفظ بشعور الدهشة من الكون والشعور بالنعمة والمنعم؟ كيف يحتاط للألفة؟ وكيف يُبقي شعور الآخرة حاضراً؟ تلك مهام التزكية، حضور القلب في أمواج الحياة.

عندما نسأل: لماذا لا يعمل الدين على الرغم من كثرة المتحمّسين، وكثرة حملة الشهادات، وكثرة المعتمرين والحجاج؟ سؤال في غاية الأهمية، ولا توجد إجابته إلا في هذه المنظومة الثلاثية؛ علم، وحكمة، وارتقاء.

قانون التعايش: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم

● لنا أعمالنا ولكم أعمالكم

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۞ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ

أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ❁ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ❁ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ❁ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ❁ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ❁ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [١٣٠ ـ ١٤١].

إن منطق القرآن بسيط؛ فملّة إبراهيم هي الجذر المشترك لكل الديانات السماوية، وكل الأنبياء مرسلون من ربّ واحد، هي إذاً صبغة الله، وأمة الإسلام تعتقد ذلك وتستيقنه، ولكن حين لا ينفع الحوار، يبقى شيء واحد متيقن هو أنّ لكلٍ عمله، تلك حقيقة لا يقف عندها البعض، فهو يعتقد أنه وكيل على الخلق، والقرآن يؤكد قاعدة: «لست عليهم بوكيل».

ومن هنا تأتي قاعدة: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

ومن هنا تأتي قاعدة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

شخصية الدين الخاتم

- **تبلور شخصية الدين الخاتم**

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل

لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [١٤٢ ـ ١٥٢].

إن بلورة الشخصية والهوية للدين الخاتم، وتمام الرسالات بعودة البشرية إلى البيت العتيق، كأول بيت وضع للناس، لهو

أمر مهم وضروري لعملية التمايز لمعالم النضج الإنساني التصوري؛ فالدين الجديد هو خاتم الرسالات السماوية، وهو الصورة الخيّرة للوحي، وبعده يأتي تفاعل الإنسان مع الكون، ونظره في الكون وعمله فيه؛ إما مستهدياً بمفهوم الرحمة، مستحضراً اليوم الآخر، وإما أن يغرق في القوة المنفلتة من عقالها، فيفسد ويسفك الدماء.

والدين الخاتم يجب أن تكون له هويته الخاصة، يلتفت إلى رموزها ومعانيها أولئك الذين اختاروه؛ فأول بيت وضع للناس هو القبلة، وملة إبراهيم هي الجامع الكبير، وسنن الأنبياء هي النسق، وخاتم النبوات محمد (ﷺ) هو الإمام المُتّبع.

زاد الرواحل

- **زاد أصحاب الرسالات والدعوات**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [١٥٣].

لقد لاحظنا خطاب الله لبني إسرائيل قبلها: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾. وهنا الخطاب نفسه للذين آمنوا، هو إذاً خطاب جامع لمن يتصدى لمهمة مزدوجة، فيها صراع وتقويم للنفس، وصراع وتقويم للمحيط.

إن إنتاج عصر جديد يحتاج إلى عدة الصبر وعدة الصلة بالخالق، **فالأولى** لأن أذى قوى التخلّف وطرائقها لا تتوقف عند حد، فهي تدافع عن أفكار مستقرة تناصرها جموع من «الذين لا يعلمون»: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾

[البقرة: ٧٨]، وعندما تتكون جبهة الرفض للجديد ممن: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] وجبهة: ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، فكل شوك في طريق بزوغ الفجر الجديد سيوضع.

للحياة بعدٌ آخر

• السمو فوق كثافة المحسوس

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۞ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [١٥٤ ـ ١٥٧].

تقديم النفس وتقديم المال، والصبر على الخوف، وقصور الموارد في المال والسلاح والطعام، هنا يُعيد القرآن تعريف الموت؛ فهو ليس نهاية حياة، ولكنه بداية حياة جديدة، فيقدّم الإنسان نفسه ليبدأ حياة جديدة، ويقدّم نفسه لتبدأ البشرية حياة جديدة.

إن كلمة الحياة في ضمير الإنسان عميقة الجذور وتحتاج إلى ما هو أقوى منها في الوجدان، وهي الحياة الخالدة الأبدية والنعيم المقيم.

ها هنا المجتمع الجديد وهو يكافح في صد الهجوم الفكري الكتابي والشركي، وتتحول الحرب من القلم وسنانه إلى الرمح وسنانه، ومن صفحات الكتاب إلى صفائح السيوف، في

أول معارك الدين الجديد (معركة بدر)، ويدفع المؤمنون ضريبة المبدأ دماءً زكية تراق، فيعيد القرآن تعريف الموت؛ فشهداء الحق لا تنصرف إليهم فكرة الفناء، إنهم أحياء. هي حواس الإنسان فقط عاجزة عن التقاط تلك الحياة، لأنها مهيأة لالتقاط مستوى من الحياة التي نلمسها، ولكنّ الكون أكبر من المحسوسات، والشهداء هم في أحسن حالات الحياة، غيب يطرح نفسه للإيمان، وإيمان يعيد ترتيب النفس لتقبل فراق الأحبة، وهو معنى يسمو بالإنسان فوق كثافة المادة.

حين تتغير فكرة الحياة تتغير معها مفاهيم الغاية التي يعيش من أجلها الإنسان، وتتغير قيمة العمل للغاية، وتستطاب مرارة الصعاب؛ فمن عاش لغاية عظيمة وابتغى مكانة سامية عند ربه، استسهل البذل لعظم العائد. ومن بقي بعده، علم أنه انتقل إلى حياة أكمل وأجمل، وأنه حاضر باقٍ بين أحبته.

أما ما دون الفراق، فهو ألم هيّن: «شيء من الخوف»، ولو قيل: «لنبلونكم بالخوف»، أي: «كل الخوف» لكانت المصيبة عظيمة والهزيمة متحققة، ولكنه «شيء من الخوف» فقط، يورث الحذر، وشيء من الجوع يورث الإحساس بالنعمة، وشيء من نقص الأموال يُحسّن من درجة إدارة الموارد، وشيء من نقص المحاصيل يُحسّن من طرق التعامل معها.

وتُكيِّف المجتمعات في صراع الوجود نفسها على العيش بالقليل، وهنا يظهر خُلق الصبر كأداة للعبور إلى مرحلة الاستقرار، وكأداة للوصول إلى مرحلة النمو والازدهار، وكأداة لمواصلة التفوق؛ فالصبر سلاح الأسلحة في كل المراحل.

إن المؤمن عندما يُبتلى يوقن أنه إن بقي فهو عبد لله لن يهمله، وأنه إن مات عائدٌ إلى الله ولن يخذله، ومن يتصف بهذه الصفات فله الثناء الحسن من ربه: ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ وله الرحمة، ومن كانت تلك صفته فقد عرف الطريق الصحيح: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

عقدة التشابه والتشبّه

- **التشابه غير التشبّه.. ترتيب التصور**

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [١٥٨].

التشابه في الأفعال وفي السلوك وفي الملبس بين مرحلة الجاهلية وبين مرحلة الإسلام هو أمر منطقي؛ فملابس الرسول (ﷺ) وصحبه (ﭫ) هي من جنس أزياء أمية بن خلف وأبي جهل. ومكارم الأخلاق عند العرب هي مكارم الأخلاق ذاتها عند المسلمين، زادها الإسلام حُسناً وأتمها وهي ليست تشبّهاً بالكفر وأهله؛ فالتشبّه نية وقصد وإعجاب، وأمم الأرض حين أسلمت لم يطالبها الإسلام باستبدال أزيائها ولبس ملابس العرب في الجزيرة، والرسول (ﷺ) أُهديت له ملابس أقوام آخرين فلبسها ولم يجد في ذلك غضاضة. ولكنّ الفهم أحياناً يقصر، والحساسية من الشرك وأشكاله تتفاقم حتى تؤدي إلى التأثّم مما ليس بإثم. وهي حالة كانت ولا تزال قائمة في المجتمعات، فما أن يقرر الإنسان الالتزام حتى يعتقد أنه مطلوب منه تغيير كل شيء، ولو استطاع نزع جلده لنزعه، وقد صيغت أدبيات

كبرى تقود إلى هذا المنحنى الخطير وتشرّبها الناس في عصرنا.

وفي تلك اللحظة التاريخية المشحونة بالعواطف والرغبة في التطهر من أدران الشرك وذكريات الماضي ظهرت حساسية من أداء بعض المناسك، مثل السعي بين الصفا والمروة وهما فرض ونسك في الحج والعمرة. ولكن النفس المؤمنة التي اكتسبت حساسيتها من رموز الشرك - وهي قريبةُ عهدٍ به - كانت تعلم أن هاتين الصخرتين كانتا متلبستين بالأصنام، صخرة الصفا كانت تحمل على رأسها صنم إساف، وصخرة المروة تحمل على رأسها صنم نائلة، لقد كان التأثّم والحرج عائقاً نفسياً أمام الحجاج والمعتمرين، ويأتي القرآن ليرفع الحرج والتأثّم عن المؤمنين ﴿لَّا جُنَاحَ﴾ أي: لا إثم، ومن تطوع وأكثر من الحج والعمرة، فإن الله شاكر له عمله وعالم به.

خطوة أخرى في ترتيب علاقة الجديد بالقديم.

عقدة الحجب والتمرير

• **جريمة الحجب والتمرير**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [١٥٩ - ١٦٠].

• **قرار الحجب والتمرير**

هو اعتقاد الحاجب هنا أنه مسؤول عن تقرير الحقيقة، وليس بيان المعلومة التي قادت إليها كاملة، حتى يرى الناس قوة

الدليل وما يعارضه، فيروا ـ ربما ـ النسبية في الاستنتاج، أو ربما يكون لهم اجتهاد آخر، هو هنا يتخذ قراراً نيابة عن الآخرين.

• **مبررات الحجب**

مبررات الحجب كبيرة وكثيرة، فهنا يعتقد إنسان أنه ليس في معركة الضمير والوجدان معروض على الله، ولكنه جزء من معسكر يجب أن يحافظ عليه وبأي تكلفة. ولو كان الأمر أمر الآخرة والسؤال والحساب: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٧٦]، هي إذاً عملية صراع مع الآخر، وقتيلها هو الحقيقة.

• **نتائج الحجب والتمرير**

اغتيال الحقيقة وتشويهها، وبناء القطيعة مع الآخر على أساس باطل ليس قوامه الحقيقة، ولكن قوامه الذرائعية، والغاية تبرر الوسيلة، وتبرير كل الشرور مثل الكذب والافتراء بدعوى الحفاظ على الحقيقة.

الجزاء: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

الحل: التوبة والبيان

لقد بيّنت آيات سبق شرحها جريمة الكتمان، كتمان الحق من قبل من عَلِمَهُ من أهل العلم، هنا يصبح العالم لا يقوم بوظيفة بيان الحق، وإنما يقرر ما هو الحق، ثم يمرر ما يؤيد قوله ويحجب ما يعارضه، يصبح سجّاناً للحقيقة باسم الحقيقة وخدمتها، هذا الصنف من الناس مطرود من رحمة الله، ومطرود من ضمير الإنسان أو هكذا يجب أن يكون.

إن الجاهل معذور بجهله، ولكنّ العالم المطّلع حين يُخفي حقائق الدين باسم الدين فجريمته كبيرة، ولكن كيف يقوم بها أُناس يعلمون خطورتها؟ أهو خوف على المصالح؟ أهو خوف من سطوة العوام؟ أهو تعصب لما استقر عليه الفهم؟

كفر العناد أمام حقيقة التوحيد

- **اختيار وتقرير متكرر**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [١٦١ - ١٦٣].

هنا تقرير قرآني تأسيسي تحدثنا عنه في سورة الفاتحة والبقرة، ولا يفتأ القرآن يُذكّر به لأنه أبو المفاهيم الكلية والجذرية التي يترتب عليها تصور معنى الحياة والموت. ولا يتحدث القرآن عن إله واحد باستمرار، ولكن يُتبع ذلك بمفهوم الرحمن الرحيم، فهو ليس وجود ذات خالقة بل ذات معتنية بموجب الرحمة، فالله هنا ليس اعتراف بإله خلق وترك ولكنه تأكيد لإله خلق، ثم هو دائم العناية بما خلق، إله كله رحمة «رحمن» ورحمته بالغة خلقه ولا تنقطع «رَحِيمٌ».

والقرآن يستخدم آيات الكون المخلوق وعظمتها للدلالة على الخالق العظيم.

الموجودات تدل على خالقها

- **فعل التعقّل ومشروع الإيمان**

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ

ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [١٦٤].

الناس درجات في العقل؛ منهم من ينفذ من محدودية المادة إلى أسباب النشأة الأعمق، ومنهم من يقف عند المادة ويُحجب عما وراءها، ومن الناس من يبقى على السطح يتلقى معارفه من بيئته، وهم ليسوا بدرجة واحدة؛ فمنهم المُقلّد الصرف، ومنهم من عنده شيء من التفكّر.

تفيدنا المدونة الكلامية الإسلامية في صناعة نقطة بداية، وتعضدها مقررات العلم المعاصرة. وسنستخدمهما معاً لصناعة نقطة ارتكاز لنقاش هذا الموضوع المتعلق بفكرة بداية الخلق، فبالمنطق العقلي المجرد نقول إن الآيات الكونية، صغيرها وكبيرها، متغيّرة باستمرار؛ فالشمس مثلاً تنقص كتلتها على مدار الساعة نتيجة الانفجارات الهائلة على سطحها، وحرارتها تتناقص بقدر نقص كتلتها، والأرض تتغير على مدار الساعة، ومنها نستنتج أنها حادثة، لأنها لو كانت أزلية لما اختفت نتيجة التآكل، فكل متغيّر حادث لا محالة يتفق فيه الحس المباشر مع العلم السابر، ومهما تسلسلت الحوادث، فهي ترجع إلى سبب أول مُوجد، وهذا السبب مستقل بذاته وليس بحادث، فذلك وحده الذي يغلق دائرة السؤال.

وبما أن الكون حادث، أي: تكوّن بعد أن لم يكن، فما هي القوة التي دفعت به إلى الوجود؟ وما هي الصفات التي يمكن أن تنسب إليه؟

هنا تأتي الآيات لتلفت نظرنا إلى عظيم خلق الكون؛ فنظرة سطحيّة من رجل الصحراء البسيط، ونظرة عميقة لعالم الفلك أو الفيزيائي، تُظهر للعقل عظيم صنع الكون، فالسماوات بالجمع هي موضوع علمي حارت فيه عقول العلماء: أهو كون واحد أم أكوان متوازية؟

نحن على الأرض كوكب يدور حول الشمس مع كواكب أخرى، وقُطر الأرض ١/١٠٠ من قُطر الشمس، والشمس هي نجم من مليارات النجوم التي تدور في مجرتنا درب التبانة، ومجرتنا واحدة من مليارات المجرات الكونية، وهو المدى الذي تبلغه مسابير الإنسان وحساباته حتى الآن... إنه كون هائل.

هذه المجرات والنجوم والكواكب ليست في حالة سكون، بل هي تدور في مسارات لو انحرفت عنها لحدث انفجار كوني مدمر للموجودات.

وحين ننظر إلى هذا الجسم الصغير المسمّى الأرض الذي تعيش عليه النباتات والحيوان والإنسان، ثم نسأل أنفسنا: أوُجد هكذا مُستقبلاً لهذه الكائنات أم تم إصلاحه؟ فإن الدراسات العلمية تخبرنا أن كوكب الأرض كان كوكباً غير صالح للسكنى، تضربه النيازك باستمرار، ويحيط به غاز ثاني أوكسيد الكربون السام للإنسان. ثم أُصلحت وأصبحت قابلة للحياة؛ بأرضها، ونباتها، وحيوانها، وإنسانها، ومحيطها.

ثم من نظّم الليل والنهار؟ فهناك حركة دورية للأرض والشمس والقمر تتناوب لتصنع هذا المشهد الذي يُنظّم حركة الإنسان ومعاشه، فمن نظّم هذه الحركة؟ ومن جعل هذه

الكواكب مستقرّة في مداراتها وفي الوقت نفسه متحركة باستمرار؟

ومن جعل الماء قادراً على حمل السفن العملاقة تنقل المنافع على وجه الأرض عبر المسطحات المائية العملاقة، فمسمار صغير من الحديد يغرق في الماء؟ فكيف تطفو السفن؟

وكيف تكوّن السحاب من تبخّر المياه والمسطحات المائية؟ وكيف اختزن الماء؟ وكيف تجاوب مع الريح تحرّكه من مكان إلى آخر؟ وكيف ينهمر مطراً يروي الأرض فتُخرج ما في بطنها وتخضر؟ وكيف تكامل ذلك مع احتياجات الإنسان والحيوان؟

إن وراء كل ذلك قوانين وقوانين تُنظّم كل هذه الموجودات، وكلما زاد الإنسان علماً، زاد حجم الإعجاز الذي يكتشفه.

ولكنّ العقول تتفاوت: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾، بشر يقومون بفعل التعقّل، وهو فعل قابل للتّكثير؛ فكلما ازداد تعقّل الإنسان كلما رأى عظيم خلق الله. والعلم الذي يسبر المادة ليسأل عما يقود إلى الإيمان فيها، والعلم الذي يقف في حدودها ربما فهم الدنيا لكنه لن يفهم معناها؛ فالمؤمن العالم بالكون يقول: يا لمبدعه، والكافر يرى الكون فيقول: يا له من كون رائع.

العاطفة في مقابل التعقل

- **عاطفة مهلكة**

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ

ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ * إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [١٦٥ - ١٦٧].

ننظر حولنا إلى جموع من البشر يهتفون لرموز، يقومون لقيامها ويجلسون لجلوسها، يعادون فيها ويوالون فيها، رموز تحوّلت عندهم من بشر إلى آلهة، رموز من أصناف شتى؛ سياسية، دينية، فنية، رياضية... إلخ، كلها تقوم بتضليل الجموع الغافلة التي عطّلت عقولها.

جريمة إلغاء العقل هي أم التحديات التي يواجهها الإنسان عندما تغلبه العواطف، عواطف غير محكمة عقلاً: ينساق الناس مع حب شخص عظيم لسبب ما، لحميّة دينية مزيّفة أو لعصبية قومية أو قبلية أو طائفية أو مذهبية، ويجعلون هواهم غير قابل للمساءلة، يرفعون قناعاته إلى مستوى الاعتقادات الدينية.

إعراض عن الحق البيّن: يرفض صاحبه الاستماع إلى الحق، أو إلى صوت المنطق، مهما كان قوياً، وينساق المرء مع أوهامه وهواه، يحارب الحق وأهله.

ويموت ويُقبل على الله فرداً، فأين الجموع؟ وأين المناصرون والمحازبون؟ وأين من رفع إلى مقام الإله فلا يسأل عما يفعل من المخلوقات؟ يزول كل ذلك ويبقى الإنسان كما دُفن فرداً، يُبعث فرداً، ويُحاسب فرداً.

ويصوّر القرآن ذلك المشهد بعد انقضاء الأمر، والتقاء تلك الجموع يتلاومون في النار. لحظة يصورها القرآن: ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

خطر سلطة القديم

● **سلطة القديم (الآباء)**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۞ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٦٨ ـ ١٧١].

سلطة القديم هي العائق الأكبر أمام مجتمعات الركود للتحول إلى إنتاج عصرها الجديد. وسلطة القديم هنا هي حالة يتم فيها إلغاء العقل القائم لصالح العقل القديم؛ فعملية التعقّل المستمر تتوقف لصالح تعقّل قديم، فلا تُسائل، ولا تُناقش، ولا تبحث عن جديد، ولا تستمع لناصح، تلك هي معضلة سلطة القديم، وهي المعول الذي يهدم ممكنات الإنسان، وهي السدّ الذي يحول دون تقدم الإنسان لإنتاج عصره، تلك أول العوائق التي واجهت الدين الجديد، وتواجه أي فكرة تجديد.

إن العبور بالنص عبر الزمن إلى بيئة ليس فيها مُحرّمات الجاهلية من الأطعمة، يعني أخذ روح المشهد ومضمونه؛ فهنا قوم ارتبطت حياتهم بأوضاع اشتبك فيها العُرف الاجتماعي الموروث من الآباء بالشكل الديني الطقوسي، المرتبط بالمؤسسة

الدينية وكهنتها. وحين يُخاطبون بالدعوة الحق لا يناقشونها، بل يتجهون للتقيّد بسلطة القديم: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، ويرد القرآن مُسقطاً سلطة القديم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

إن كل فكرة جديدة تواجه سلطة القديم، ممثلة في أبنيته المادية والمعنوية الحارسة له ليستمر ويبقى، وتبقى معه المصالح والمكاسب التي ترتبت عليه، تلك هي الفكرة العابرة للزمان والمكان، وهي قضية تواجه كل تجديد وكل عمل يُطالب بالتفكّر في حصاد عصر سبق.

الاستسلام لسلطة القديم باختصار هي جوهر حالة الركود، والانفكاك منها لا يتم إلا بممارسة التفكّر.

فهؤلاء القوم المُقلّدون لآبائهم أشبه بالدواب التي تسير بحسب صوت راعيها، ولكنها تسمع صوتاً من دون أن تعرف معنى: ﴿دُعَآءً وَنِدَآءً﴾. وهؤلاء القوم صُم لا يستمعون إلى خطاب، وبُكم لا ينطقون بحق، وعُمي لا يرون الحقيقة، إنهم قوم لا يعقلون، تلك باختصار أزمة بيئة الركود: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾.

المحرمات استثناء

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۞ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٧٢ ـ ١٧٣].

يعمد الناس إلى التحريم فيجعلون الأصل في الأمور

التحريم بدلاً من الإباحة، ميل الإنسان للتشديد ينتشر في البيئات المتدينة، هو تصوّر عن الدين نتج من كثرة التحذير والترويع، يدفع الشخص إلى التوسع في دائرة المحرمات، ويستسهل التحريم. والقرآن هنا يُلغي القيود التي وضعها أهل الجاهلية على أنفسهم، ولكن هذه المحرمات كلها لغير المُضطر، أما من خشي على نفسه الهلاك ولم يتعدّ القدر الذي يلزمه للنجاة فلا حرج عليه.

الأصل في الأمور الإباحة، وكل ما هو طيب فهو حلال للمؤمنين، تلك قاعدة كبرى، والمُحرّمات مُحدّدة محصورة؛ مثل الحيوان الذي مات حتف أنفه ولم يذبح ذبحاً شرعياً من الحيوانات البرية، والدم المسفوح (المراق)، ولحم الخنزير، وما ذُبح كقربان لشيء من المعبودات غير الله.

والضرورات تبيح المحظورات؛ فالمُضطّر الذي يخشى الهلاك لا إثم عليه في أكل المُحرمات.

قواعد كبرى تقوم عليها الشريعة، والتدين غير المُهتدي بالقرآن يُضيّعها.

العلاقة بين الجوهر والمظهر

- **التمسك بالجوهر هو الأساس**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ❁ ذَٰلِكَ

بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [١٧٤ ـ ١٧٧].

إن المعارك التي تدور بين أهل الأديان أو حتى بين أصحاب الدين الواحد، إمّا أن تكون صراعات في الشكل أو تكون صراعات في المضمون والجوهر. وهنا القرآن يُعرّف البر الحقيقي والخير الحقيقي؛ فيوحي بأن موضوع مثل اتجاه الإنسان في الصلاة ـ على أهميته في صحة الصلاة ـ إلا إنه لا يجوز أن يُغطي على جوهر الدين، وهو ما يُعرّفه القرآن بالبر أو الخير العميم. وها هنا يطرح القرآن ذلك الجزء الصلب من الدين، وهو الجزء الذي يدور حوله العمل الصالح، وللنظر إلى القائمة التي يُقدّمها النص، والخطاب هنا للفرد بصفته الذاتية:

- أركان الإيمان: وهي ما يوفر الإطار العام أو المنظور الكوني الشامل لمجتمع الإيمان، وجوهر هذا الجزء هو أن الله هو موجد هذا الكون، وأنه باعث الناس ليوم الحساب، وأن المطلوب من الإنسان العمل الصالح الذي يعمر الأرض ويمنع الفساد، وأن محددات هذه الحياة الصالحة قد جاءت بها الرسل وتركتها مكتوبة للمؤمنين.

- الإنفاق العام على الفئات المُستضعفة: وتلك

هي قضية الدين العامة التي ترتبط بالإيمان، إنها إنقاذ الإنسان من الفقر والحاجة، وهنا القرآن يخاطب الإنسان كفرد، ويجعله مسؤولاً عن أقاربه، وعن الأيتام وعن المساكين، وعن ذلك الذي تغرب عن أهله وضاقت به الحال، وعن السائلين عموماً، وعن عون من يطلبون العتق. وبالتالي من منظور أشمل يجعل القرآن مقاومة الفقر والحاجة، في رأس قضايا الدين الأساسية؛ فالدين في جوهره الصلب جاء لتقوم الحياة الطيبة في أحسن أشكالها، ونحن هنا نتساءل: لو أن العقل المسلم وعى مركزية الاقتصاد العادل ومستلزمات وجوده، لتغيرت صورة المجتمع. فلا اقتصاد مُتقدّماً من دون صناعة وزراعة، ولا صناعة وزراعة متقدمة إلا بالعلم والمعرفة. تلك المعادلات هي محور تقدّم المجتمعات، والقرآن يضعها بعد قضايا الإيمان مباشرة وسابقة للصلاة، والأصناف المذكورة هي بنت عصرها. ولو نظرنا إلى قائمة التحديات اليوم لوجدنا مشاكل البطالة والعجز عن الزواج في سن الزواج، ومشاكل إيجاد السكن، والتسرُّب الدراسي وعمالة الأطفال... إلخ، كلها بنت معالجة قضية الفقر.

• العبادة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: تلك قضية روحية، ولها مردود اجتماعي كبير: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ فالمجتمع الحي يحتاج إلى الوازع الداخلي، وإلى الشعور بترابط

العقائد بالعبادات في رباط وثيق يمتد إلى صناعة السلوك العملي الذي هو جوهر عملية إعمار الأرض.

● الزكاة المفروضة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: ولا يترك القرآن قضية العدل الاقتصادي فقط كعمل تطوعي، بل ينقلها إلى مرحلة الوجوب.

● الوفاء بالعهود: ولننظر هنا إلى الفكرة الكبرى التي تقع في قضية الوفاء بالعهود. يمكننا أن نقول من دون تردد إن العهود تبدأ من الالتزامات الفردية إلى الالتزامات المؤسسية إلى التزامات الدول. هنا يُحوّلها القرآن إلى قضايا كبرى من أمهات أعمال البر، التي يُركّزها بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ...﴾. اليوم كم نحن بحاجة ـ والمجتمعات المسلمة تُعيد تشكيل تصوراتها ـ إلى ربط قضايا الإيمان والعبادة بقضايا الحياة الكبرى (مكافحة الفقر، وحسن الالتزام بالتعهدات).

● الصبر في الشدة والفقر والمرض والحرب: والصبر هو حمل النفس على ما تكره، والصبر أنواع؛ هو صبر من لا حيلة له، وهو وضع قسري كالسجين لا يجد مخرجاً من محبسه، وضع صعب وتحدٍ كبير يحتاج إلى بذل الغالي والنفيس لعبوره. وهناك وضع الحياة الطبيعية وما يواجهه الإنسان من مرض ونقص في المال ونقص في الولد، وكل ذلك هو شيء من الصبر، ولكن صناعة الحياة والنصر تحتاج إلى صبر أكبر؛ فصناعة الحرب تعني قوة في العلم والبحث والاختراع والصناعة والزراعة والتجارة والبناء

الاجتماعي، وكلها تحتاج إلى ذلك الصبر الخلّاق في العمل الجاد الذي ينتج النهضات.

إنه إذاً الإيمان بمعناه الحي، يرتبط ارتباطاً عميقاً بالعدل الاقتصادي، ويرتبط بالعبادة الصحيحة وبالصبر على صناعة الحياة.

التأسيس للتحضّر

• القِصَاص بدل الثأر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٧٨ ـ ١٧٩].

إن وظيفة الدين هي نقل الإنسان من حالة الهمجية إلى حالة التمدّن، وأول التمدّن هو تنظيم مسألة الحقوق، وأعلى الحقوق هو حق الحياة.

تنظيم الحياة الاجتماعية في بيئة مضطربة كبيئة الجزيرة العربية لم يكن أمراً يسيراً، فما زالت بقايا آفة الثأر والمبالغة فيه في البيئة العربية حاضرة. ومن هنا يُقدّم لنا القرآن لحظة ارتقاء من ردود الأفعال الغرائزية إلى رود الأفعال التي تحفظ للمجتمع تحقيق أقصى قدر من الاستقرار.

ها نحن هنا في البيئة العربية القبلية؛ حيث تنتشر ظاهرة الثأر، ومع شعور الاستعلاء الذي يصحب مثل هذه البيئات،

تأتي هذه الآية لتقرر قانون حق القِصَاص بدلاً من الثأر؛ حيث تقوم الدولة بإعطاء حق القِصَاص من الجاني إلى ولي القتيل، وبالتالي منع مقولات مثل التي جاءت في سياقها الآيات؛ حيث تُقرر قبائل أن لا تأخذ الجاني نفسه للقِصَاص منه، بل تأخذ من تحدده هي؛ فإن قتلت امرأة امرأة أخرى قالوا: المرأة عندنا تساوي رجلاً من خصومنا، فيقتلون غير الجاني علواً واستكباراً، فجاءت الآية لترد بأن القاتل يُقتل: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥] و«المؤمنون تتكافأ دماؤهم»، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، من غير تجاوز إلى بريء بسبب الاستعلاء.

وإن رضي ولي القتيل بالديّة، فعليه أن يُطالب بالديّة بالمعروف، ويُخفف ما استطاع في طريقة السداد، وعلى القاتل أن يؤدي ما عليه بإحسان؛ فالرب جل وعلا رحمته واسعة، ومن اعتدى بعد التراضي وأخذ بالثأر، فلينتظر عذاب الله له يوم القيامة ويُقتص منه في الدنيا، والآية صدرت بلفظ: ﴿كُتِبَ﴾، وتعني فُرض، وبالتالي يدخل الحكم في التشريع الإسلامي الجنائي.

ها هنا تبرز مشكلة الاستعلاء ووضع الموازين بمعيار القوة لا بمعيار الحق، وهي قضية القضايا في كل عصر.

ونحن هنا أمام قاعدة كبيرة: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فمسائل الدماء تُدخل المجتمع في حلقة مُفرغة من القتل والثأر المتبادل. فتتحطم وحدته، ويفقد قوته. وبالتالي، وعبر القِصَاص العادل، تتوقف الحلقة المُفرغة من القتل والقتل المضاد، وتستمر حياة المجتمع.

التأسيس لتفتيت الثروات في المجتمع

- **الوصية وفكرة تفتيت الثروة ووصولها إلى المجتمع**

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٨٠ - ١٨٢].

ها نحن أمام آلية تخدم فلسفة الإسلام في تفتيت الثروة باستمرار.

إن فكرة الإسلام عن المال تبدأ من مقولة: «إن المال مالُ الله»، والناس مُستخلفون فيه، وإن المال قَوامُ الحياة، وإن السعي والكسب مشروعان في الدين، وكذلك طلبُ الغنى ليُنفق الإنسان على نفسه وأهله وأبنائه ويذرَهم أغنياء.

ويسعى الإسلام أن لا يكون المال دُولةً بين الأغنياء، وتأتي استراتيجية تفتيت الثروات المُتركّزة عبر تقسيم الميراث، وآية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ...﴾ [النساء: ١١] فيها تفصيل من لهم الأنصبة، والآية هنا تجعل الوصية لغير أولي الأنصبة، باستمرار تأتي هنا فكرة توزيع القوة في المجتمع.

الفقر بين الشعور والعون

- **مواجهة الفقر، منظومة إجراءات وآلية شعور**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۞ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [١٨٣ ـ ١٨٥].

تتسلسل حلقة الإيمان لتتّصل بأضعف حلقات المجتمع، أي: الفئات المُستضعفة. ومن هنا ربط القرآن قبلها باستمرار بين الإيمان والإنفاق والزكاة، وجاءت الوصية لتُضيف بُعداً جديداً في تفتيت الثروة، وهنا تأتي قضية ربط المجتمع بمشاعر الجوع لتكون حلقة أخرى في بناء المجتمع المنشود.

تدريب عملي طويل على ذلك الشعور الذي يعانيه الفقير والمسكين.

إن روح الصيام وجوهره هي وجود ذلك الشعور العميق بحاجة المُحتاجين. وحين نقول إن رمضان شهر القرآن، نقصد شهر الوعي بالقرآن وبروحه. إنها ليست القراءة العجلى التي تُراهن على كم الحروف المقروءة، بل هي العناية والمجاهدة لفهم الرسالة ذاتها. فرمضان هو شهر الإنفاق، وهو شهر المشاركة الشعورية، هو النزول إلى حياة الفئات المحرومة، إلى المجتمع، والالتقاء معهم.

ولكن ككل المفاهيم يتم تحويرها بحيث تفقد معناها؛ فرمضان اليوم هو شهر الطعام والإسراف، وشهر تضييع الأوقات بدل تقدير الأوقات. شهر يتفنن فيه الناس بالتحايل على الهدف منه، فهم ينامون نهاراً ثم يسهرون ليلاً، ولا يبقى من رمضان إلا مظهر صلاة التراويح، والجلوس إلى مائدة الإفطار بمستلذاتها، ثم شيء من قراءة القرآن في سباق الحروف. هكذا، تُهدر المعاني لصالح المباني، ويدعو القرآن إلى المحافظة على المعنى والمبنى، ولكن المعنى يأتي أولاً.

إن للصيام وظيفة كبرى داخل منظومة المشاعر، ومعيار نجاحه والانتفاع به هو تحقيقه لوظيفته؛ وهي زرع الشعور بالآخرة وبالحساب، وعلامة ذلك الاستعداد للقيام بمتطلبات روح الدين، وفي قلبها حقوق المستضعفين، والشعور بهم. وعلامة القصور فيه هو تخلفنا عن أمم الأرض في مواجهة مظاهر الفقر والحاجة في المجتمعات المسلمة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ قاعدة ننساها:

مرّة أخرى ستظهر قاعدة كبرى من قواعد الإسلام: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر؛ كل ما يفوق طاقة الإنسان في أوضاعه الطبيعية فالله غني عنه، ولنرى مثال الصيام:

- أيام الشهر في رمضان مُحددة ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وفيها يتم الصيام فهي ليست عاماً أو أعواماً.

- المريض الذي يضرّه الصيام ـ أو من يجد فيه مشقة ـ ويخاف الضرر، والمسافر، عليهما القضاء بعد انتفاء العذر.

• من يشق عليه الصيام، ككبير السن، عليه فدية، والفدية هي إطعام مسكين عن كل يوم تم فيه الفطر، ومن زاد عن ذلك فالأجر أكبر، ولكن يبقى الصوم هو الأفضل والأكثر أجراً عند الله.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ...﴾ تلك هي القاعدة.

إزالة الواسطة بين العبد والرب

• قريب مجيب لا نحتاج معه إلى وسيط

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [١٨٦].

كم يحب البشر الوسطاء! فهم حين يُزيلهم الخالق يعود البشر إلى إنتاجهم، صالحين وأولياء، أصناماً وأوثاناً، مُؤسسات وأجهزة.

عبادي: كلمة تَحَبب؛ فهم اختاروا خالقهم، وعبدوه طوعاً، هم عباد وليسوا عبيداً، منتهى التحبب.

قريب: الشعور بالقرب هو ما يدعو للهمس، والهمس للقريب ودعاء المولى هو دعاء القريب المُتحبب بالقرب من عباده.

أجيب: إنه لشيء مذهل أن يُخاطب العلي القدير العظيم عباده بخطاب القرب ويعدهم بالإجابة.

لقد أغلقت المسيحية في لحظة تاريخية طريق الإنسان

إلى الله، لأنها طرحت ضرورة المرور عبر جسد طاهر وهو الكنيسة. أمّا الإنسان، فهو مُحمّل بخطيئة أبيه آدم، وبالتالي فهو يحتاج إلى وسيط يجلب له المغفرة. ومن هنا ولدت فكرتا الاعتراف والغفران، وتحوّلت في لحظة الانسداد التام إلى فكرة صكوك الغفران. وجاءت الرسالة الخاتمة لتقول ليس هناك خطيئة أصلية تُورّث لأبناء آدم، فآدم قد تاب الله عليه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، والبشر موعودون من رب كثير التوبة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وهنا رب العزة يخبرنا أنه «قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه»، إن البشر مدعوون إلى الإيمان بالله والتواصل معه، وبالتالي يبلغون طريق الرشاد والحق.

هنا الله هو الذي يعرض على عباده التواصل معه من دون حواجز، وهو الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه. إنها عودة إلى بساطة الدين وصدق العلاقة الخاصة التي تربط العبد بربه، فبمجرد أن تتحرك عند الإنسان الرغبة في التواصل، يجد الله قريباً منه يسمعه.

الدين والتيسير

- **ليست وظيفة الدين الإعنات ولكن التيسير**

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ

﴿حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [١٨٧].

كلّما أحس الإنسان بالضيق جاءه الفرج؛ فليست وظيفة الدين إعنات الناس فيضطرون إلى التحايل، بل وظيفته الكبرى هي مساعدة الإنسان أن يعيش متسقاً مع نفسه، ظاهره كباطنه.

من الواضح أن هناك حكماً سابقاً يجعل الجماع مُحرّماً في ليل رمضان، والبعض كان لا يستطيع الامتناع فيشعر بالحرج، فجاء النص ليُحل للصائم ليلاً الجماع والطعام حتى يتبين ضوء الفجر. والخيط الأبيض هو التقاء نور الشمس على شكل خط في الأفق مع خط الظلام، كما يُحرم الجماع على من دخل في الاعتكاف في المسجد.

هنا الحدث صغير ولكن الدلالات التي يحملها كبيرة؛ فها هم أوائل المؤمنين يبلغهم الأمر بتحريم الجماع والطعام بعد العشاء في رمضان، فلا يستطيعون الالتزام، ويشكو بعضهم إلى رسول الله (ﷺ) الحال. فالبشر هم البشر، حين لا يُطيقون شيئاً إمّا يثورون عليه وإما يتحايلون عليه أو يجدون له حلاً وسطاً، والله أعلم بخلقه، فهو لا يريد لهم التحايل على الدين، بل يريد ظاهراً متسقاً مع الداخل.

الرشوة والغفلة عن الله

- **الرشوة فقدان الشعور بالرقابة الإلهية**

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٨٨].

الرشوة ليست بنت عصر دون آخر، بل هي بنت كل عصر، وهي سلوك منتشر في بعض البيئات أكثر من غيرها، لكن لا يخلو منها مكان، وتشير الآية هنا إلى صنف من الرشوة، هو اللجوء إلى القضاء في ما يعلم الإنسان أنه ليس بحق له، ويتوسل أخذ حق غيره ولو بطريق الرشوة. هذا السلوك يدل على غياب الربط بين علم الله وعلم القاضي، فحكم القاضي في القضية مبني على ما يُقدّم له من وقائع أو مبني على فساد ضميره حين يقبل الرشوة، أما حكم الله فهو ناتج من علمه بالوقائع كما هي، والمؤمن ينظر إلى حكم الله وليس إلى حكم القاضي، ذلك أن غياب ربط حركة الحياة وقراراتها بقضية الإيمان والرقابة الإلهية هو أخطر الظواهر التي تجعل الإيمان مجرد مظاهر ليس له انعكاس على صناعة الحياة.

الدين يجيب على ما هو من طبيعته

سؤال الدين على ما ليس من فضائه والسلوك فيه على غير مراده:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٨٩].

تفسير الظواهر الطبيعية

وهنا يسأل القوم عن موضوع الأهِلَّةِ كظاهرة طبيعية وتفسيرها؟

ويُجيب القرآن عن الجانب العملي لموضوع الأهِلَّةِ الذي

يدخل في اختصاصه فبها يتم تحديد مدخل الشهور والأيام وما يرتبط بها من معاملات دنيوية ودينية وبها يتم تحديد مواعيد الحج.

ومرّة أخرى يُركّز القرآن على موضوع قريب من الآية (١٧٧)، فقد كان العرب قبل الإسلام إذا حجّوا لا يدخلون بيوتهم من أبوابها ولكن يدخلونها من ظهورها علامة على التقوى ويعتبرون ذلك من أعمال البر، ولكن القرآن يؤكد أن البر هو ارتباط القلب بالله والخوف من عذابه، وأن دخول البيوت يتم من أبوابها، فالمطلوب هو ربط القلوب بالتقوى ذلك هو أساس الفلاح.

ها هنا يظهر بوضوح الاتجاه القرآني في التركيز على المضمون وربط العمل بالتقوى.

الحرب والسلام في الإسلام

- **قاعدة القواعد في مفاهيم الحرب في الإسلام**

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [١٩٠].

حين انتشر الإسلام الغاضب، تمّ الاعتداء على هذه القاعدة الكبيرة التي تُخبرنا خبراً عظيماً بأن قتال من لم يُشهر سيفه في وجوهنا هو عدوان، وأن الله لا يحب العدوان، ها نحن نقف على قاعدة أخلاقية كبرى جرفها الهوى والجهل والانفعال: إن الله لا يحب المعتدين، وقتال من لم يقاتل اعتداء. هكذا، ببساطة يقوّض القرآن فكرة العدوان وفكرة الحرب التي لا تنتهي وأفكار التشدد والغلو.

الحرب المشروعة هي حرب تتمتع بخاصيتين في الإسلام: أنها حرب لرد عدوان، وأنها في سبيل الله، هكذا قبل أن نذهب إلى سورة التوبة والأنفال، يُخبرنا الله (ﷻ) بالإطار الأكبر حتى لا تضل الأفهام.

بعد مرور سنة من صلح الحديبية أذن الله للمؤمنين بأن يُقاتلوا القرشيين في حال اعتدائهم على المؤمنين، وأن يكون قتالهم في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله. ويأمر المؤمنين بعدم البدء بالعدوان. ويربط ذلك بقول حاسم: إن الله لا يحب المعتدين.

إن صلح الحديبية، وما تبعه من أحداث، من حيث هو ليس قابلاً للتكرار، فهي أحداث مضت وبقيت ذكراها ولكن تقرير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عابر للزمان والمكان، إنه تقرير في غاية الخطورة. هنا القوم قد صدوا المؤمنين عن الحرم في سنة سبقت وهم عرضة للهجوم في سنتهم القائمة، والقرآن يُحذرهم من العدوان ويؤكد ذلك بقول حاسم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

إن هذا التأكيد له دلالاته في ضوء ما نعرفه عن الأحداث الجارية حينها؛ فتاريخ الصراع بين القرشيين وبين الدين الجديد حاضر في المُخيّلة، فهو تهجير للمؤمنين من وطنهم، وهو مصادرة أموالهم، وهو حرب هجومية عليهم، وهم هذه المرّة يمنعون المؤمنين من الوصول إلى الحرم، والقرآن يمنع إعلانهم بالحرب، ويسوّر ذلك بقوله: «إن الله لا يحب المعتدين»... يا له من بلاغ افتتاحي عجيب لحالة صراع كبير!

• **إذا تم العدوان على المؤمنين أُذن بالقتال**

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [١٩١].

القتال هنا له مبرره، إخراج المؤمنين من مكة، وفتنة المؤمنين عن دينهم، عندها فقط يُباح القتال ويتصاعد لهيبه حتى يتم دفع العدوان، إن القتال هنا لا يتم بسبب كفر أولئك، ولكن لسلوكهم ضد المؤمنين.

إن الكفر هنا ليس مبرراً للقتال، والمبرر هو صد المؤمنين عن دينهم والمبادأة بالعدوان، وذلك أمر في غاية الأهمية من المنظور القرآني للقتال وأسبابه.

• **يتوقف القتال إذا توقف العدوان**

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٩٢].

فماذا إذا توقفوا عن العدوان أو دخلوا في الدين؟

إن توقفوا عن القتال يتوقف القتال، وإن دخلوا في الدين فالله غفور رحيم بعباده، والإسلام يُجبّ ما قبله.

• **سبب القتال لمنعهم من فتنة المؤمنين عن دينهم**

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [١٩٣].

إن القتال مُبرر بوجود الفتنة، أي: الصد عن الدين، فحين تنتهي الفتنة ينتهي القتال، والفتنة ظلم، وحين يتوقف الظلم يتوقف القتال، فلا مسارعة في الدين إلى القتال إلا للظالمين المعتدين، المانعين أهل الايمان من دينهم.

• **الاعتداء يُرد بمثله لا أكثر منه**

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [١٩٤].

قاعدة المثل قاعدة حيوية في عدل الإسلام، وهي لبنة كبرى في فهم الدين وفي فهم «رحمة للعالمين». هنا الاعتداء يُرد بمثله ولا يتوسع انتقاماً؛ فغاية الدين ووسائله سامية، وأنفس من يحملونه يجب أن تكون سامية.

والحُرمات هي كل ما يجب احترامه وحفظه ويمنع الشرع من انتهاكه، وكانت الشهور الأربعة العربية: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، تُسمى بالأشهر الحُرم، ويُمنع فيها القتال. وهو تقليد من عهد إبراهيم وإسماعيل راعته العرب، وهو خاص بجزيرة العرب حينها. فهي منطقة الغارات المتبادلة، والقتال الذي لا يهدأ، فوُضعت الترتيبات حتى يستطيع الناس الحج والعمرة. وهي في الجاهلية ليست مواسم عبادة فقط، بل هي مواسم تجارية كبرى. وقد سُمّيت الشهور الثلاثة المتتابعة تبعاً للفكرة؛ ذو القعدة يتوقف فيه القتال وسُمّي «ذا القعدة»، لأن الناس تستعد فيه للحج فيجب تأمينها. وشهر للحج والمناسك يسمّى «ذا الحجة»، وشهر بعده ليعود الناس إلى بلادهم آمنين في قوافلهم (مُحرّم). ثم شهر مفصول عنهم وفي منتصف السنة للعمرة (رجب). وشطر الآية يقول إن المؤمنين يجوز لهم القتال في الشهر الحرام إن تم الاعتداء عليهم، وإن من اعتدى بأي شكل وجب القصاص منه.

فكرة الأشهر الحُرُم متعلقة بترتيبات البيئة العربية حينها ولا علاقة لها بعصرنا، فما الذي بقي من النص عابراً للزمان والمكان؟

من المؤكد أن استحضار كفاح الدين من أجل البقاء قيمة كبيرة في الذاكرة، ولكن النص أمامنا يرشدنا إلى قاعدة مهمة متعلقة بالقتال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. إن الدين هنا يرفض الاعتداء ابتداء، ويرفض التجاوز في رد العدوان، فهل ما زالت هذه الصورة مختزنة في العقل المسلم؟ لننظر من حولنا إلى الخطاب والممارسة... هل استقر هذا الفهم؟

علاقة الاقتصاد بالحرب

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٩٥].

الحرب قرار كبير ومن دون توفر الاقتصاد المناسب يتعرض وجود المجتمع للخطر: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، إن العقل المسلم اليوم يتلقى فكرة الحرب في إطار بسيط. والحرب هي أهم القرارات قاطبة لأنها قرار وجود، وفهم ترابط القتال.

ومن الطبيعي أن الحرب تحتاج إلى المال، ومن هنا قد يتقاعس بعض المؤمنين عن الإنفاق بسبب الطبيعة الإنسانية المجبولة على الشح، ومن هنا يأتي التذكير بالإنفاق وربطه بموضوعه الرئيس وهو إعلاء كلمة الله.

والحرب تدور مع معسكر يريد اجتثاث المجتمع المسلم،

وهؤلاء المؤمنون حين يتراخون عن الإنفاق إنما يُعرّضون وجودهم للخطر: ﴿إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

وتتابع الآية: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: أحسنوا إنفاق المال، وإحسان إنفاق المال قضية كبرى. وهنا القضية التي تحتاج إلى إنفاق هي قضية وجودية تتعرض للحياة أو الموت الكامل للمجتمع المسلم الناشئ، والقضية من الوضوح بمكان، ولكن ماذا تعني العبارة اليوم؟ وكيف تُنفق أموال المؤمنين؟ وكيف تُرتب أولويات الإنفاق للميسورين من الأمة اليوم؟ سؤال كبير، وجوابه ليس باليسير. وإن توفرت الإجابة بقي السؤال: كيف تعبر الإجابة في فضاء العقل العربي المسلم المسكون بنماذج محددة لتعريف الخير وعناوين محددة تجتذب الاهتمام؟

لو انطلقنا من القضية التي تتحدث عنها الآية إلى تفكيك المشهد وتجلية ما يقع تحته، سنجد الآية تتحدث عن القتال ضد عدو ظالم خارجي، واليوم الأمة واقعة تحت أكثر من احتلال، وهي غير قادرة على الدفاع عن نفسها عسكرياً، فسلاحها وطعامها ومعارفها كلها بيد أمم أخرى، هي أمة لا تمتلك من مستلزمات وجودها شيئاً بيدها، نتيجة غياب العقل والرؤية والإرادة أولاً. وبعدها تأتي قضايا المعرفة والعلم بالعلوم الإنسانية والطبيعية، وبعدها يأتي الاقتصاد والصناعة والزراعة. وعلى الرغم من أن كل ذلك يتفاعل في الواقع ويؤثّر في بعضه بعضاً، ولكن في النهاية نحتاج كمجتمعات إلى ثقافة ومعرفة بالعصر، كمقدمة لاتخاذ القرارات، وإلى تقوية العلاقة بالعلم والبحث، وإلى برامج إدخال الصناعة إلى العالم الإسلامي،

وإلى برامج تطوير الزراعة في الوطن الإسلامي، وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى الإنفاق وتدخل في وصية: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، تلك هي أولويات العصر، ولكن العقل المسلم مُحمّل بأولويات أخرى، ليس منها احتياجات العصر. فصاحب المال المسلم اليوم لا يزال يعتقد أن بناء مسجد في منطقة مكتظة بالمساجد أولى من الصرف ـ مثلاً ـ على إعداد الأئمة، أو الإنفاق على مركز للبحوث والدراسات الاستراتيجية، لتصميم تصور كلي لاحتياجات بلد ما، أو للصرف على موجهين اجتماعيين مثقفين لتوجيه المجتمع، أو على إعلام معرفي حقيقي، أو مراكز البحوث الصناعية أو الزراعية أو الطبية. هذه الاختلالات تهدد الأمة وعلاجها في فهم: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لننظر من حولنا ونتساءل: هل استقر مفهوم البحث عن الأحسن في الإنفاق والأكثر حيوية لنجاة المجتمع، سواء على مستوى الفرد أو مستوى الدولة؟

للضرورة أحكامها

• للضرورة أحكامها (حوار الحكم التكليفي والحكم الوضعي وامتداداته)

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ

﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [١٩٦].

إن الحكم التكليفي لا يتنزّل على الواقع من دون معرفته وملابساته، فهنا واقع يمنع المؤمن من الإتيان بالمناسك على وجهها.

أتموا الحج والعمرة لله فإذا مُنعتم من دخول مكة لأي سبب، فعندها انحروا ما تيسر من الذبائح التي كنتم ستهدونها في الحرم قربة لله (إبل أو بقر أو غنم) حيث أحصرتم. والعرب في الجزيرة كانت تسوق الأنعام وتتجه بها إلى الكعبة لنحرها قربة لله. ومن المعلوم أن الله لن تناله لحومها ولا دماؤها، ولكن المقصود هو ذلك الشعور بالاستجابة لله، وعلى الأرض إطعام الفقراء، وهنا أناس محصورون لا يستطيعون بلوغ الحرم ومطلوب منهم أن لا يحلقوا رؤوسهم حتى تبلغ البهائم مكان نحرها في الحرم، والإحصار حالة نادرة اليوم أو معدومة، فلا أحد يسوق الهدي إلى الحرم عابراً بها الصحاري من بلاده، أمّا من كان مُضطراً للحلق بسبب مرض أو علّة بالرأس فله أن يحلق على أن يختار بين أن يُطعم ستة مساكين أو إهداء شاة أو صوم ثلاثة أيام، فإذا زال الخوف أو المرض المانع فعلى الشخص الذي قرر أن يقوم بعمرة ثم يتحلل من الإحرام ثم يعقده ثانية عند الحج ـ وهو ما يسمى تمتع ـ فعليه هدي لجبر تحلّله من الإحرام للاستمتاع. فإن لم يستطع ـ بسبب غياب المال أو انعدام الحيوان ـ فيصوم ثلاثة أيام قبل الوقوف بعرفة في أيام الحج (من الإحرام حتى يوم النحر). ويصوم سبعة أيام في بلده بعد عودته، وهذا الحكم خاص بغير أهل الحرم المقيمين بمكة.

- **تدريب وتذكير على السلوك الأمثل (مدرسة الحج)**

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [١٩٧].

مدرسة الحج تذكير وتدريب، لا يستفيد منه إلا المنتبه لروح الحج، أما المشغول بميكانيكية وشكل الأداء دون روحه، فلا تغيّر ولا أثر.

وهنا يخبرنا القرآن أن الحج أشهر معلومة هي: شوال وذو القعدة وذو الحجة العشر الأوائل منه، ومن أحرم قبلها أهلّ بعمرة، وعلى الحاج فيها أن يوطّن نفسه على الامتناع عن الجماع وعن الكلام الفاحش (رفث) والمعاصي أو الخروج عن حدود الشرع (فسوق) ولا حديث يورث الخصومة (جدال)، وكل عمل صالح تأتونه فالله مُطّلع عليه ويثيبكم عنه، وأعدوا احتياجاتكم حتى تستغنوا عن سؤال الناس، وخير زاد تحملونه معكم هو زاد الخوف من الله والاحتياط من معصيته، ولو تركنا التفصيلات السابقة ونظرنا في التعقيب: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾، لوجدنا ملخّصاً كبيراً للدين فالتقوى لها جانبان، **الأول**: هو الشعور بالخوف من غضب الله في الدنيا وحسابه في الآخرة، **والثاني**: هو اتخاذ الإجراءات العملية لعدم الوقوع في الذنب وذلك هو لب الدين.

الدين والدنيا معاً

• في قلب الدين لا تعارض بين الدين والدنيا

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ الضَّآلِّينَ ۞ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [١٩٨ ـ ٢٠٣].

في قلب الدين لا تعارض بين الدين والدنيا، والإنسان يطلب الحسُنييْن؛ الدنيا والآخرة، ذلك هو الإسلام.

لقد كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية يتاجر فيها الناس، فتأثّم الناس من ذلك بعد الإسلام، فخاطبهم القرآن بأن ليس عليكم إثم في التجارة في الموسم: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، فإذا خرجتم من عرفات ووصلتم مزدلفة، فهللوا وكبروا وادعوا الله وصلّوا عند المشعر الحرام (جبل قزح)؛ وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام في مزدلفة.

وقريش كانت تُميّز نفسها عن بقية الحجيج فتفيض من

مزدلفة بدلاً من عرفة، فأُمروا أن يفيضوا مع الناس من عرفة، وأُمروا أن يستغفروا الله، والله غفور رحيم.

والعرب كانت تقف بعد الانتهاء من المناسك عند الجمرة ثم تذكر مآثر آبائها، فأُمروا بذكر الله. والناس صنفان: صنف يدعو الله أن يعطيه من خير الدنيا ولا يذكر الآخرة، وصنف يدعو الله بخير الدنيا والآخرة وأن يجنبه الله النار، وهؤلاء لهم حظ وافر من الثواب والقبول، والله سريع الحساب.

إن مطلب الإنسان المؤمن الفوز في الدارين، هو أن يريد أحسن ما في الدنيا من خير والأفضل في الآخرة، وهي صورة تُغاير تصورات كثيرة منتشرة: أن الدنيا لغير المؤمن والآخرة للمؤمن، أمّا هنا فالمؤمن يريد سعادة الدارين.

والمؤمن المهزوم في الدنيا ليس هو المؤمن القرآني الذي يُقاوم الطغاة، ويصنع سلاحه، ويدير الاقتصاد، ويقيم السدود، ويقود الجيوش، ويحكم بالعدل، ويغتني ويُغني ذريته، هو قارئ وعالم، هو يطلب أحسن العمل في الدنيا حتى يحصل على أعظم الأجر في الآخرة.

ووصية للحُجّاج ولغيرهم؛ فأيام منى ورمي الجمرات هي أيام ذكر، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد بحيث يتم التكبير عقب الصلوات، ولغير الحُجّاج يتم التكبير بذلك من صباح يوم عرفة إلى عصر آخر أيام النحر، ومن تعجّل بالخروج من منى في اليوم الثاني بعد الرمي فلا حرج عليه، ومن تأخر لليوم الثالث فلا حرج عليه أيضاً.

تناقض الأقوال مع الأفعال

- **قول وفعل متناقضان**

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [٢٠٤ - ٢٠٦].

كم مِنَ الناس مَن يُبهرك بقوله وتنبهر به الجماهير، ولكن قوله يخالف فعله!

هنا تبرز قصة لشخص منافق (الأخنس بن شريق) الذي أعلن إيمانه وإسلامه بين يدي الرسول (ﷺ)، ثم خرج من عنده فمال على زرع لمسلمين فأحرقه وقتل دوابهم!

قصة متعلقة بتلك اللحظة التاريخية، فماذا يبقى منها لنا في عصرنا؟

كم عدد الناس الذين يُظهرون الإسلام، ويُوهمون الناس أو يحضرون مساجدهم أو يقيمون حلقات العلم في دورهم وقصورهم ثم تراهم أئمة الإفساد في الأرض؟ لا يرتدعون عن منكر صَغُرَ أم كَبُر، يسرقون المجتمع ويبيعون مقدرات الأوطان، ومن اعترضهم فتكوا به، كم عدد هؤلاء في بلاد الإسلام؟ لهؤلاء يقول القرآن: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

إنها صورة النفاق والظلم والاعتزاز بالباطل.

تناسق الأقوال مع الأفعال

• قول وفعل متسقان

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [٢٠٧].

عندما تتسق الأقوال والأفعال، يوجد الإنسان القويم، وهنا حادثة أخرى مقابلة للسابقة، وبطلها صهيب الرومي الذي ترك ماله لقريش مقابل أن يسمحوا له بالمغادرة للانضمام إلى الرسول (ﷺ). وهي الحادثة التي قال فيها الرسول (ﷺ): «ربح البيع أبا يحيى...» وحين نُكبّر الصورة، نجد أنفسنا أمام أصحاب المبادئ، أمام قمم بشرية مستعدة للتضحية في مقابل قضايا كبرى، هذه القلة التي تصنع الفارق على الحياة، هي من يصنع الحياة، ويبلور القدوة للمتطلعين إلى غد أفضل.

إن مرضاة الله هنا هي الاستجابة لمنهجه، ونحن هنا في رحلة معرفة الطريق الذي يرسمه القرآن لهذه الحياة، وقد تبيّنا بعض المعالم الكبرى في الآيات السابقة، ولا يزال الطريق طويلاً للكلام عن الصورة الكلية.

كم نحمل معنا من مخلفات الماضي السقيم؟

• ضع قائمة الجرد التي تنجيك

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۞ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [٢٠٨ - ٢١١].

كم من الناس يعلن توبته ويبقى على بعض ما كان يمارسه من دون أن يقطع وشائجه معه؟

وكم يحمل الناس معهم من ماضيهم، لا ينفكون عنه مهما كان سقيماً وعقيماً؟

إنهم يريدون مع استسلامهم لله الاستسلام لسلطة القديم والمزاوجة بين الماء الصافي والماء الكدر.

ها هنا قوم دخلوا في الإسلام ولكنهم طالبوا أن يبقوا على شيء من ممارساتهم الدينية السابقة، هذا ما تقوله المدونة التفسيرية؛ قوم من اليهود أسلموا وطلبوا أن يبقوا على قراءة التوراة وبعض الممارسات اليهودية، وهو أمر عجيب ولكنه غير مختص باليهود، فالعرب دخلوا في الإسلام، فهل ترك الناس النياحة والطعن في الأنساب؟ بل هل تركوا حروب الغارات البينية؟ هل تركوا عادات الجاهلية والتفاخر بالأنساب والأحساب؟ أبَنوا الشورى أم أبقوها على أعرافهم في الجاهلية بغير نظام مستقر؟ هل أنصفوا المرأة؟ هل أنصفوا العبيد حينها؟ ذلك ما تُحذِّر منه الآيات، وهو أمر حريّ بالتفكّر. فما هي قائمة الجرد التي يحتاج الإنسان إلى أن يضعها حين يُريد أن يدخل في كل الإسلام، وبالتالي يُنقذ نفسه من ذلك الوعيد الكبير: ﴿ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

والقرآن هنا لا يُطالب الرسول (ﷺ) أن يسأل بني إسرائيل

عن عدد الآيات استفهاماً ولكنه يطالبهم أن يلتفتوا إلى حجم الآيات التي عصوها وتركوها وراء ظهورهم.

والموضوع ممتد، فإن كان بنو إسرائيل فعلوها فهي ظاهرة في السلوك تجاه الإيمان، قد يتلبّسها أيّ مجتمع مؤمن في لحظة ما، إنه أسلوب تعليمي لكل مؤمن، تلك هي الحكاية.

التدبر في الأحوال

• سوء تفسير الغنى والإمداد

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [٢١٢].

حين يُبتلى الإنسان بقصر النظر وضعف البصيرة، ويُحرم من الحكمة والتعقّل، يرى الموت من حوله ولا يلتفت إلى قصر الحياة الدنيا وقصورها، ولا يراها بأنها دار عبور إلى حياة الخلود بل تكبر في عينيه فلا يرى غيرها، وهو ينظر إلى غيره باعتبارها، فإن كانت زينتها عنده اليوم حَسِبَ أن ذلك لفضله وبفضله، ولا يرى المنعم ولا إمكانية انقلاب الأوضاع في الدنيا. فمن كان مُضطهداً اليوم وقليل المال والقوة، فخزائن إمداد الرحمن لا تنضب، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

إن حضور الخالق في تصور الإنسان وأن بيده الخير والرزق لا بيد سواه، سواء في الدنيا والآخرة، هو صمام أمان من ذلك الشعور بالاستعلاء بسبب ظاهرة الغنى والمال.

وعلى الرغم من أن كلمة زُيّن هي مبنية للمجهول بحسب

بناء اللفظ، إلا أن الفاعل معروف وهو الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء والعقل الذي اختلت موازينه.

ها هنا لحظة تاريخية بدا فيها معسكر الإيمان الأكثر فقراً والأقل عدداً وعدة، وبدا فيها معسكر الكفر أغنى وأكثر عدداً وعدة، ومعسكر الكفر يبدو مُستعلياً ساخراً من أحوال المؤمنين في تلك اللحظة وغير منتبه إلى المشهد الأكبر؛ فها هنا قوم منتصرون قطعاً يوم القيامة، وفي الدنيا هم قوة صاعدة تنتظر فضل الله وتعمل لتحصيل أسباب القوة والمنعة: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

إن القرآن يقول لمعسكر الكفر وكل معسكر مغرور: لا تنظر إلى ميزان القوة بمنظار لحظي، بل مُد البصر للمستقبل، فعلى مدى الحياة المشاهَدة، فضلُ الله ليس حكراً على أحد، ومن عمل نال نصيبه من القوة والنصر في الدنيا وفي الآخرة العاقبة للتقوى.

مفهوم البغي

• البغي ميل نفسي إلى ما استقر من أفهام على ما استبان من حقائق

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٢١٣].

البشر مختلفون تلك طبيعتهم، ولكن على الرغم من ذلك فالقرآن يصفهم بأنهم في مرحلة ما من تاريخ البشرية كانوا أمة واحدة. والسؤال: أكانوا على الضلالة أم على الهدى أم على فطرة العقل وحيرته في معنى الوجود؟ من وراء الوجود؟ لماذا الإنسان؟ ماذا بعد الموت؟ ما وظيفة الإنسان في الكون؟

تلك الأسئلة التي يستمر العقل في طرحها والبحث عن إجابتها، والذي يبدو من الآية أن الله بعث الأنبياء ليبشروا من عَمِلَ صالحاً بالثواب وينذروا من عمل شراً بالعقاب، وتوج ذلك بإنزال الكتب لتفصل بين الناس في مسائل الاختلاف، ولكن من تنزلت عليهم الكتب والبيان اختلفوا هذه المرّة ليس بسبب الجهل ولكن بسبب «البغي».

هم قوم تفرّقوا عن الحق بسبب عنصر في غاية الأهمية وهو البغي، وهي حالة يمكن شرحها هنا بمعرفة الصواب وفعل الخطأ. هي تجاوز مقصود لما اتضح وبان من الحقيقة، هو ميل نفسي تجاه ما استقر من أفهام على حساب ما استبان من حق.

الاختبار الأقصى

- **حمل الحقيقة الربانية له تكاليف**

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [٢١٤].

إن التأسيس لمجتمع الحرية ليس سهلاً، والدفاع عن حرية التدين ليس أمراً يسيراً في بعض الظروف، وهنا القرآن يخاطب

المؤمنين في أجواء معركة الخندق التي ضاقت فيها الدنيا بالمؤمنين حتى أنهم ليخاف أحدهم الذهاب لقضاء حاجته، يخاطبهم ليشحذ الهمم لتحمّل تبعات إنشاء المجتمع الجديد، وأن حماية حريتهم الاعتقادية أمر يستحق العناء.

إن أنباء الأمم السابقة قد قصَّ الله جوانب منها لأمة الإسلام في القرآن المكيّ، وفي سورة البقرة جانب من قصة بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] تلك هي القصة. وها هو القرآن يلخص حال أهل القضايا: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ خوف، وفقر، ومرض، وجوع، وتصدع النفوس، واهتزاز القلوب، والخوف، حتى استبطأ الرسول (ﷺ) ومن معه النصر: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

التراحم المجتمعي

- **احتياجات التراحم**

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [٢١٥].

ها هنا المؤمنون في ذلك المجتمع الصغير في المدينة يسألون عن أوجه الإنفاق والقرآن يجيب: الوالدان، الأقارب، اليتامى، المساكين، ابن السبيل. فيا ترى أتلك هي أوجه الإنفاق المعتبرة شرعاً أم هي احتياجات ذلك المجتمع الصغير حينها؟ سؤال في غاية الأهمية.

لقد لاحظنا قبلها كما في الآية (٢٠٧) من البقرة صهيب الرومي يُنفق لافتكاك نفسه من قريش، والله يُثني على فعله. ورأينا في الآية (١٩٥) من البقرة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾، هي إذاً احتياجات المجتمع الناشئ يعالجها القرآن بشكلها الخام، ولكن ماذا إذا توسّع المجتمع أُفقياً ورأسياً؟ أُفقياً من حيث المساحة، ورأسياً من حيث تعقيد الاحتياجات؟ ماذا حين يحتاج المجتمع إلى مظلة من التأمين الاجتماعي والصحي لكل أفراده؟ وإلى نظام اقتصادي كبير لسد احتياجاته؟ وإلى بنية صناعية عسكرية كبرى؟ وإلى مراكز الدراسات والبحوث؟ وإلى بنية تعليمية وإعلامية كبرى؟ وإلى غطاء زراعي يلبي احتياجاته؟ وإلى رعاية البيئة؟ أيدخل كل ذلك في باب الإنفاق أو يتخلّف؟

هنا يلزم جمع روح النصوص كلها لفهم مقصود القرآن من الإنفاق، وغاية الإنفاق في أي مجتمع هو تحصيل أكبر قدر من القوة للمجتمع. والقرآن يعرض موضوع الإنفاق على أنه قرين الإيمان والصلاة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وهو يُطالب المؤمن بالإحسان في الإحسان: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وهو يجعل الإنفاق سداً أمام الوقوع في التهلكة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾.

حماية حرية التدين

- **قصة الحرية**

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا

﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢١٦].

النفس البشرية مجبولة على حب البقاء، هي بطبيعتها لا تتشوف إلى القتال، هو أمر تكرهه النفوس السويّة، ولكنه فُرض على الرغم من ذلك لأن الآخر المعادي سيقاتل، هو حاجة وجود لمجتمع الإيمان، وشرط بقاء حين يهدد الآخر حرية الاعتقاد والتدين، والتاريخ ملآن بقصص مُصادرة الحرية وبقصص الأحرار.

إن تحرير الإرادة من قهر البشر للبشر مهمة شاقة تحتاج إلى مغالبة النفس من أجل هدف أسمى وغاية أعلى.

الفتنة هي الصد عن الدين بالإكراه

- **الفتنة أكبر من القتل**

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٢١٧ - ٢١٨].

إن القتال الذي يُحدّث عنه القرآن هنا مُبرر في سياق حدث كبير، مفرداته: صد عن سبيل الله، كفر بالله، منع المؤمنين من

البيت الحرام، إنها الفتنة بأشكالها المختلفة، إنها محاولة صرف المؤمنين عن دينهم، تلك هي القصة بالدعوة إلى القتال هنا.

الاعتراف بالظواهر الاجتماعية وتنظيمها

• الدين وتنظيم الظواهر الاجتماعية وموازنة الفائدة بالضرر

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ

أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ✽ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ
أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ✽ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا
غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ
وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ✽ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ✽ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا
تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ
مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ✽ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن
يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا
وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ
ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ
أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ✽ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ✽ وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ
أَنفُسِكُمْۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن
تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ

أَجَلَهُۥ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ❁ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ❁ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ❁ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ❁ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ❁ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ❁ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ❁ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [٢١٩ ـ ٢٤٢].

الظواهر الاجتماعية

- الخمر.
- الميسر.
- الأيتام.
- الزواج من معسكر الشرك.
- العلاقة الزوجية في أثناء الحيض.
- أشكال الجماع.
- ظاهرة الحلف.

- الإيلاء.
- الطلاق.
- الرضاعة.
- عدة المُتوفَّى عنها زوجها.
- الرغبة في الزواج من أرملة.
- صلاة الخوف.

كانت أسئلة المجتمع المدني وتحدياته الداخلية مِن قضايا المتعة كالخمر والقمار، إلى قضايا الزواج والعلاقات الزوجية وأشكال الممارسة الجنسية، إلى إشكالات الفصل في العلاقات الزوجية، إلى الرغبات الداخلية في الاقتران وطرق التعبير عن هذه الرغبات وتوقيتها؛ كانت كلها مطروحة للسؤال كمادة، وتلك ملاحظة كبرى على مُجمل الصورة لذلك المجتمع، فهو مجتمع بشري بامتياز، وتظهر فيه كل النوازع البشرية، والوحي لا يتردد في التعبير عنها وعلاجها.

والمعالجة القرآنية لها سماتها الخاصة:

أولها: الاعتراف بالظاهرة وتسميتها وشرعنة السؤال عنها، وتلك ظاهرة في غاية الأهمية؛ فوحدها المجتمعات التي لا تدفن رأسها في الرمال في القضايا الاجتماعية، وتُسمّيها، وتدرس حجمها وأسبابها وطرق علاجها وتنظيمها، تصل إلى أمان الأفراد واستقرارهم النفسي، وبالتالي تُساهم في قوة المجتمع.

وثانيها: اللغة الراقية التي تُستخدم للتعبير عن هذا النوع من

العلاقات؛ فحين ننظر إلى مُجمل الآيات، سنجد لغة عفيفة تتناول الموضوع بوضوح ولكن تُقدم معالجة لفظية في غاية الرقي.

وثالثها: ربط كل القضايا بمعادلة اليوم الآخر والتقوى. وهي قضايا تغيب عن النفوس في حُمّى الخلافات التي تنشأ في العلاقات الاجتماعية، وهي نقطة مهمة بل في غاية الأهمية. والأمر اللافت للنظر أن هذه الإشكالات وحجم التذكير بها هو جزء من ذلك المجتمع الأول والوحي يتنزل والرسول (ﷺ) بين ظهرانيهم، ولكنها الطبيعة الإنسانية.

المؤمنون والخوف من القتال والقتل

● **التعامل مع خوف القتال**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٢٤٣ ـ ٢٤٥].

هنا يتغيّر الموضوع الاجتماعي وتبرز مسألة إعداد المجتمع للقتال، ويروي للمجتمع المسلم بشكل رسالة سريعة خبراً عن قوم ما فرّوا من الموت في ديارهم وطلبوا النجاة ولم يواجهوا ربمّا عدوهم، فقال: فكتب الله عليهم الموت فماتوا ثم أحياهم، ونشأ منهم جيل تغلّب على الخوف وقاتل وانتصر. قصة لا يُعلم تفصيلها، وما ورد منها في المدونة التفسيرية لا يرقى ليكون تفسيراً لها متفقاً عليه، ولكن تلك حدود القصة في الرواية

القرآنية، وتؤدي غرضها، بأن الفِرار من مواجهة العدو لا يقي الإنسان من الموت.

والمؤمنون ـ لإنشاء المجتمع الجديد في بيئة معادية ومسلحة ـ لا بد من أن يحملوا السلاح ويواجهوا خوفهم وكراهيتهم للموت التي هي جزء من الطبيعة البشرية، والله يسمع دعاءكم.

ومرة أخرى سنرى ارتباط الحرب والقتال بالقدرة على الإنفاق.

وظيفة النبي ووظيفة الملك المقاتل

- **وظيفة النبي غير وظيفة الملك المقاتل**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [٢٤٦].

ها هنا النبي المُبلّغ والمُتصل بالخالق موجود، وتبرز الحاجة إلى الملك المقاتل، والوظيفتان مفصولتان في هذا المكان وفي هذا السياق، فالتطابق بينهما ليس ضرورياً كما هو واضح من الآية.

وهنا قصة تستكمل موضع إعداد المجتمع المسلم للقتال، وكعادة القرآن في ترك التفصيلات المُتعلقة بالزمان والمكان وأسماء الشخوص، والاكتفاء ببعض المعلومات الضرورية للقصة، فهي متعلقة ببني إسرائيل، والعبرة منها مقصود بها المجتمع المسلم، وسنأخذها في محطات متتابعة:

تناسب المواصفات مع نوعية العمل القيادي

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [٢٤٧ ـ ٢٤٨].

بما أن المهمة عسكرية وفي سياق الحرب القديمة التي تؤدي فيها القوة البدنية أهم الأدوار يشير القرآن إلى وصفين لهذا الملك المقاتل:

- بسطة في الجسم.
- بسطة في العلم.

وها هنا يقدم كُبراء بني إسرائيل مواصفاتهم، وهي في كل المجتمعات البدائية موجودة فالمطلوب عندهم أمران:

- أحقية النسب.
- سعة المال.

الجندية طاعة وتصميم

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ

غُرْفَةً بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

طالوت يختبر مستوى الطاعة عند جنوده (وقد خبر ترددهم سابقاً)، فهم يمرون من عند نهر، ويطلب منهم أن لا يشربوا منه، باستثناء من أخذ بقدر كف يده لا أكثر، وهنا يُخالف أغلب القوم الأمر ويشربون ويتضلّعون من الماء، وهكذا تساقط قسم كبير من الجيش وبقيت قلة صامدة.

وحين بلغ هؤلاء القوم أرض المعركة اهتزت ثقة من نجح في الاختبار الأول، ورأوا أنهم غير قادرين على التغلب على جالوت وجنوده (العماليق)، وبقيت فئة قليلة منهم مُوقنة أنه من الممكن التغلب على حالة نقص العتاد والعُدة، وهي تستدعي هنا التاريخ لتقول إن هناك أحداثاً كثيرة في التاريخ تنتصر فيها الفئة الأقل على الفئة الأكبر، ولكن ذلك وفق سنن كونية سنراها في بقية القصة.

سنة التدافع

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [٢٥٠ ـ ٢٥٢].

القصة تكتمل بالتقاء الجيشين؛ جيش العماليق وجيش طالوت، وفي المشهد نعلم قصة داود الراعي الذي قتل بمقلاعه جالوت أمير العماليق، فملّكه بنو إسرائيل عليهم بعد أن انتهت المعركة، ولكن سنة التدافع ماضية.

ملاحظات مهمة

القصة هنا تشير إلى درجة من التشابه بين قلة المؤمنين في وجه معسكر الشرك وأتباعه وكبرها، وتبشرهم بالنصر.

ولننظر بعمق إلى المشهد كله قبل عمل الاستنتاجات التي تخصنا اليوم، فقصة طالوت تحتوي على:

- معركة يُعِدُّ لها نبي.
- قوم يُعيّن لهم الله من يقودهم بأمر منه.
- قائد تُحضّر الملائكة معجزة تُدلل على صدقه.
- معركة يتواجه فيها كل أطراف النزاع في صفين متقابلين.
- معركة لو قُتل فيها القائد تُحسم المعركة.
- أسلحة المعركة متشابهة وبسيطة.

وبالتالي، فالتقابل بين صورة معسكر المدينة التي يقودها نبي ويحمل آخر رسالة، وقد برزت معجزته بالقرآن، والقتال يتم في صفوف، والأسلحة متماثلة، ووعد الله حاضر بالنصر؛ المثل قريب وشبيه، فماذا لدينا اليوم؟ كل عناصر الموقف مختلفة؛ فلا نبي، ولا قائد مُعيّن بالوحي، ولا مُعجزة تثبت قول القائد، ولا

جيوش تتقابل في صفوف المعارك الماضية، ولا الأسلحة متشابهة، فالفارق بين الأمم في العلم والمعرفة غيّر طبيعة المعارك، ولكن تبقى قضيتان كبيرتان، **الأولى**: مادية ظاهرة، **والثانية**: معنوية إيمانية. فالمادية الظاهرة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. فتاريخ المعارك العسكرية ملآن بالمخططين البارعين الذين تغلبوا عبر الاستراتيجيات غير المباشرة على خصم أكثر منهم عدة وعتاداً، فسنن الله الجارية في الخلق أن الذكاء العسكري يؤدي دوراً مهماً في الصراع، وطالوت هنا تم اختياره بسبب متعلق بهذه النقطة: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾؛ فهو عالم بشؤون المعارك، وقادر على تحمل مشاق المعارك خاصة في الماضي، والتي على القائد أن يخطط ويقاتل في الوقت ذاته، أما الجانب الإيماني المعنوي، فهو الروح المعنوية التي يبعثها الشعور بمعيّة الله في صفوف المؤمنين، وحين تلتقي القدرات العلمية مع الإرادة والروح المعنوية العالية، عندها يمكن إنتاج استراتيجيات النصر وفق سنن الله المستقرة في تسيير الكون.

مشيئة الله في قوانين الكون

- **مشيئة الله**

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن

﴿قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [٢٥٣ ـ ٢٥٤].

لقد تفاوت الرسل في مكانتهم عند الله وفي الميزات التي نالوها في مسيرتهم الدعوية، وقد قصّ القرآن قصصهم في كثير من السور القرآنية، والآيات التي وردت في معجزات عيسى (عليه السلام) معروفة. ويمكن النظر إلى سورة آل عمران الآية ٤٦: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ...﴾، والآيــة ٤٩: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ من المعروف أن القتال ينتج من اختلاف التصورات أو تنوع الاحتياجات أو الشعور بالندرة، وأتباع الأنبياء وأصحاب الأديان ليسوا في مأمن من هذه العوامل. وهم بعد النبوات يُتركون مع النص، وأفهامهم للنص مختلفة، وهناك الشهوة والشبهة، تلك الطبيعة البشرية شاء الله أن توجد وهو معنى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾، وهذا مُطّرد؛ فلو شاء ما كفروا، ولو شاء لآمن من في الأرض جميعاً، ولكنه خلق الكون على نسق: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. وأتباع الأنبياء بشر من البشر تعتريهم عناصر النقص البشري؛ فمنهم من يضعف أمام الشهوة أو أمام الشبهة، ومنهم من يخرج عن الدين بالكلية. ذلك أمر تقول لنا الآية إنه جزء من سنن الله في الكون أن يخلق بشراً لهم حرية الاختيار، ومع الاختيار تأتي قضايا الصواب والخطأ، والله يُنظّم كونه كما يشاء: ﴿والله يفعل ما يريد﴾.

لا إكراه في الدين

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۞ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [٢٥٥ ـ ٢٥٧].

وهنا سنلحظ الارتباط بين آيات المشيئة في الآية السابقة التي قالت لنا إن الله خلق الكون على نسق، وإنه لو شاء ما اقتتل الناس ولو شاء ما كفروا، فالإنسان هو ذاته إرادة إلهية، ولا يخرج عن مشيئة الله بحال، تأتي الآية ٢٥٥ لتصف ربّ العزة، فهو إله واحد حي دائم قائم بأمر خلقه لا يغفل عنهم ولا ينام، ملكه كل شيء من السموات والأرض، ولا واسطة عنده إلا بما يقره هو من الشفعاء لمن يشاء من خلقه تكريماً لهم، وعلمه بكل شيء، الحاضر والغائب كامل. ولا يستطيع الإنسان أن يتخيّل سَعَة هذا العلم إلا بما شاءت إرادة الله أن تصل إليه علومهم، وملكه مستقر على كل شيء، فعرشه واسعٌ سعة السموات والأرض، ولا يثقل عليه رعاية السموات والأرض على عظمهما، فهو الأعلى والأعظم.

وها قد تم تمهيد الجو لأعظم هدية للإنسان المختار من الرب العلي القادر الجبّار، إنها نعمة الاختيار الحر للمعتقد؛

فهنا يلزم سَوق سبب النزول كما رواه ابن عباس، فهنا رجل من الأنصار كان له ابنان نصرانيان فأراد إكراههما على دين الإسلام، فنزلت الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾، فقد عُرض الإسلام عليهما كاملاً غير منقوص، وقامت الحُجة عليهما فاختارا طريقاً آخر، فهما وما اختارا. وطريق الإسلام هو الحق، ولكن الإنسان أيضاً مُختار وهو من يقرر طريقه ومصيره، والكل عائد إلى الله.

والرشد هو الإسلام ومن تمسك بعقائده وأحكامه وأخلاقه نجا، ولكن من اختار الطاغوت ـ وهو عبادة ما دون الله من بشر أو حجر أو غيرها ـ فله ذلك، ويتحمل نتيجة اختياره.

إن الله يزيد الذين اختاروا الإيمان هدى، وهي هداية عون لهم على حسن اختيارهم، فيخرجهم من جهل الكفر إلى نور الإيمان الحق وفتوحاته، أمّا الذين اختاروا غير الله أرباباً فهم يقودونهم بعيداً عن نور الإيمان ويسلكون بهم في ظلمات الكفر، فالنور واحد، والكفر ظلمات بعضها فوق بعض، هو نزول إلى قاع سحيق، فكل شهوة تقود إلى ما هو أسوأ منها، فتزداد الظلمة والوحشة.

الإنسان والمغالطات المنطقية

- **القدرة على الجدل أو الإنسان المغالط**

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٢٥٨].

وهنا مثال على الطاغوت (النمرود، كما هو في المدونة التفسيرية)، وهو يحاور إبراهيم (عليه السلام). فإبراهيم يقول أمراً لم يدّعه سوى إله ولا يستطيعه إلا إله، وهو موضوع الحياة والموت. وهنا تظهر قدرة الإنسان على الجدل بالباطل؛ فالنمرود يعلم أن إبراهيم يتكلم عن الموت والحياة أصالة عمن وهب الحياة للنمرود ومن يسلبها منه، ولا يستطيع عاقل أن يقول: أنا وهبتني الحياة أو أنا من يسلبها حقيقة. ولكن النمرود يقولها: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾. إنه يتكلم عن سلطته الدنيوية بالعفو عن المذنبين أو عقابهم بالموت، وهو تغيير كما يقول المناطقة في الموضوع، أي: في ما يتم عنه الحديث، فإبراهيم يتكلم عن موضوع الإحياء والإماتة أصالة وهذا هو «المعطى»، وعليه يصدر الحكم (المحمول) يحيي ويميت، ولكن النمرود يُغيّر الموضوع لتشابهه من وجه بالموضوع الأول وهو الإماتة التابعة والتي يستطيعها البشر بالسلطات التي تحت أيديهم من عقوبة الموت أو العفو.

ويثبت المحمول أو الحكم للنمرود أنه يحيي ويميت بهذا المعنى الجديد الذي يُضل به البشر، وهنا يُغيّر إبراهيم الموضوع لأنه يريد أن يُنهي الموقف، فانتقل إلى أمر لا شبهة فيه، وهو شروق الشمس وغروبها، وهو أمر لا يستطيعه إنسان ولا يقدر على ادّعائه.

والحوار كان يمكن أن يستمر؛ فالجدل بهذه الطريقة قابل للاستمرار بتغيير الموضوع مرّة أخرى إلى نقطة أخرى، ولكن ليس في النقطة ذاتها، فلا يستطيع النمرود أن يقول: أنا آتي بالشمس من المشرق أو أجعلها تغيب في المغرب.

والقرآن يلفت نظرنا إلى أسلوب في المغالطة المنطقية مشهور؛ وهو تغيير الموضوع إلى ما هو قريب منه بوجه حتى تتم مغالبة الخصوم، وهو طريق من لا يسعى إلى الحق، بل يريد الجدل والمغالبة، وسنكتشف المزيد في ما يعرضه القرآن من أساليب يتبعها البشر.

الإنسان وحيرة السؤال

• **الإنسان المتسائل الشاكّ**

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٥٩].

هناك بدا الإنسان المغالط وهنا يظهر الإنسان الشاكّ، وهي تروي لنا قصة رجل (لا يهم الاسم هنا ولا المكان) يمر على قرية وقد خوت من أهلها وتهدّمت بعد عمران وسقطت أسقف منازلها (عروشها) وخطر في باله سؤال كبير، ومن السؤال يتضح أنه مؤمن بالله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ إنه الإيمان بوجود الله، ولكن السؤال هنا يتأرجح بين القدرة والكيفية. لم يعتب عليه القرآن في السؤال ولكنه أجاب عنه عملياً وحسّياً: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وسأله: كم مضى على موتك أو غيابك عن المشهد؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، إن الزمن عند النائم أو الميت يتوقف ويبدو قصيراً جداً؛ فحياة الإنسان

على الأرض عند موته تبدو قصيرة جداً (عشيّة أو ضحاها)، وصاحبنا هنا ليس باستثناء: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، والتفت إلى طعامك ستجده كما هو، وانظر إلى حمارك، فالتفت فرآه عظاماً نخرة، وهو الدليل على الفترة الزمنية التي مرّت على موته. وهنا يعطى الإجابة عن سؤاله الكبير والمشروع كما يثبته القرآن، فيرى كيفية الخلق والنشور، والقرآن يُتبع: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي: رأى بعينيه قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: أيقنت بما لا يترك سؤالاً في العقل «أن الله على كل شيء قدير». وهنا يقول القرآن: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، آية بمعنى مُعجزة، وآية بمعنى نصاً قرآنياً خالداً.

ولنتدبر قليلاً المعجزة والآية، فلا شك في أن المعجزة حُجة على من رآها عياناً، ولكن ماذا يتبقى منها سوى الخبر لمن لم يحضرها؟ فَلِمَ تُعتبر مشاهدة هذا الرجل كافية ليقين بقية الخلق؟ وماذا لو ثار السؤال في أذهانهم ولم يصلوا إلى اليقين وهو مشاهدة العين، أفيقدح ذلك في إيمانهم؟ سؤال كبير.

هذا الكائن المسمّى بالإنسان ملآن بالتساؤلات وهي ترد على ذهنه باستمرار، والآية هنا لا تدين السؤال، بل تشير بأن عين اليقين لا يُتوصل إليها إلا بالمشاهدة الحسيّة، ولكن الإنسان يصل إلى يقينٍ ما بالاستدلال العقلي، وفي غياب المعجزة الحسيّة المُشاهدة بالعين المجردة في موضوع السؤال فلا سبيل إلى عين اليقين، وفي غياب عين اليقين يبقى الإنسان متسائلاً!

إبراهيم الباحث عن سكون القلب في السؤال

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢٦٠].

يؤكد القرآن المنحى ذاته بقصة سيدنا إبراهيم مع السؤال، ولكن هنا القصة أعمق في الدلالة؛ فهنا الشخصية التي يتحدث عنها النص ليست أيّ شخصية، إنه أبو الأنبياء وخليل الرحمن، وهو من وصل إلى الإيمان في معركة طويلة مع قومه، وهو الذي نجّاه الله مما كان قومه يريدون به من حرقه بالنار. هي قصة في الايمان تُحكى وظاهرة بشرية قال عنها القرآن: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]. وهو قد فرغ من موضوع الإيمان ويطلب عين اليقين، وهنا الرب جلّ وعلا يسأله وهو أعلم به، ويُثبّت ذلك في كتابه الخالد القرآن: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟. إن سؤال إبراهيم يطرح قضية الإيمان كلها ابتداءً، وإبراهيم يُبين: ﴿بَلَىٰ﴾ أنا مؤمن، ويستثني قمة الإيمان وهي اطمئنان القلب وسكونه عن السؤال، وهو يريد ذلك القدر الزائد الذي يتمناه كل مؤمن: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. ورب العزة لا يقرعه ولا يطالبه بسكون القلب قسراً لعدم إمكان ذلك للبشر، ويعطيه ذلك القدر الزائد من اليقين الذي يوقف التساؤل من جذوره، وهو رؤية المخلوقات، وكيف تُجمع وتُبعث.

إن هذا القدر من اليقين مُتعذّر في حالة البشر كلهم، ولذلك، يبقى ذلك القدر من التساؤل موجوداً في العقل الإنساني، وهو جزء من تلك الإرادة الشاملة التي شاءت أن

تكون المعجزة الأخيرة، كتاب للبشر وليس معجزة مُصممة لكل فرد، ولم يبق من المعجزات معها إلا رواية تاريخية وقدرة العقل على الإيمان عبر الدليل غير المباشر بالتأمل في الكون كمعجزة كبرى. وعلى الخلق والوجود المتجدّد كمعجزة متجددة في الحياة من حولنا. هي معجزات مبثوثة لكل الخلق، والإنسان حينها بالخيار؛ إما أن ينظر حوله ويكتشف المعجزات البيّنات، أو يمر عليها غافلاً غير منتبه، وهو ما يفسر عناية القرآن بالكون كمصدر للإيمان.

ولكن العلاقة بالكون متفاوتة بين البشر؛ فهناك الغفلة الكاملة، وهناك الالتفاتة العابرة، وهناك الاندهاش الذي لا يقود إلى بحث، وهنا الاندهاش الذي يتعمق في أسرار الكون: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ولكن الآية التي بين أيدينا تقول لنا رسالة كبيرة هي أن الإنسان مهما سَمَا فهو عُرضة للسؤال، وأنه لا بد من أن يستفيد من ميزة التساؤل ويوظفها لإعمار الكون. فقتل السؤال ـ ولو كان من جنس سؤال الإيمان وفي عمقه هو جزء من التكوين الإنساني ـ هو قتل لجوهر الإنسان، وهو عقله وسبب تكليفه.

فن الإنفاق

- فن الإنفاق وأجره وآفاته

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۞ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۞ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [٢٦١ ـ ٢٧١].

آيات طويلة وممتدة تدل على درجة حاجة المجتمع إلى الإنفاق، والقرآن هنا يُبين أن الإنفاق الأمثل هو:

- إنفاق أجره عظيم حين يكون في سبيل الله.
- وأنه يجب أن يتم تخليصه من المن والأذى.

• أن الكلمة الطيبة مهمة.

• الإنفاق من طيبات الكسب.

• أن الحكمة هي الإنفاق لا الإمساك.

هل ننفق على الكافر؟

• الإنفاق على المسلم والكافر (رحمة للعالمين)

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [٢٧٢].

يروي لنا ابن عباس سبب نزول الآية، ويقول: «كان رسول الله (ﷺ) يأمر بأن لا يتصدّق الناس إلا على أهل الإسلام، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾، فأمر بالتصدُّق على كل من سأل من كل دين»، والآية تقول للرسول (ﷺ) ليس عليك إجبار المشركين على الإسلام بأي وسيلة كانت إلا البلاغ فهو مطلوب، أمّا إكراه الناس على الدين فغير مطلوب، والله يهدي هداية عون من اختار الحق بخلاف من أعرض عنه، وبالتالي لا تربط تقديم الخير للناس بإسلامهم من عدمه.

واعلموا أن كل خير تُنفقونه على المحتاجين بغضّ النظر عن دينهم سيعود عليكم بالنفع لأنه مُدّخر لكم يوم الحساب، فأنتم أنفقتم لمرضاة الله، والله لن يظلمكم بحرمانكم من الأجر والثواب سواء كان المُنفَقُ عليه مسلماً أم كافراً، فالإنسان هو الإنسان، وعونه جزء من مرضاة الله.

إن الله هو رب العالمين، وكتابه يبدأ بـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ويختم بـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]. ورسوله أُرسل: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكيف تظهر رحمة الله للعالمين وهم على اختلاف مللهم ونحلهم وجغرافيتهم، إن كان دين الإسلام لا يرى الرحمة إلا بالمسلمين؟ إنه خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عندما يُترجم عملياً وعلى مستوى كوني. حينها يظهر الوجه الإنساني للإسلام، وتلك مهمة لا تجد من يتصدى لها على مستوى عالم الأفكار التي ابتعدت عن القرآن، وعالم العلاقات الذي ضاق عن العلاقة بالإنسان، وعالم المشاريع الذي حجز الخير عن الإنسان، وحين تستعيد الأمة وعيها ستستعيد مكانتها.

هل نملك حلاً اقتصادياً فائقاً؟

- **الحالة الاقتصادية في المدينة**

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٧٣ ـ ٢٧٤].

يشيع عند كثير من الناس أنه لو طُبِّقَ الدين، فإن مشاكلنا الاقتصادية قابلة للحل بمجرد صدق الإيمان؛ فالحل هنا موجود في نظام، والنظام موجود في مكان ما من النص، فهل الأمر كذلك؟ لننظر إلى مدينة الرسول (ﷺ).

وصل إلى المدينة من المهاجرين قلة قادرة على الكسب

فاشتغلت بالتجارة التي هي مهنة قريش الأصيلة، وكثرة لم يكونوا من التُجّار بل من ضِعاف الحال، والعمل في المدينة شحيح وطبيعته زراعية وهم لا خبرة لديهم بالزراعة وهي بطبيعتها القديمة حرفة عائلية. وفي هذا المربع من الغُربة تكونت مجموعة بشرية هم أهل الصُفّة الذين كانوا ينزلون هو مكان مُظلل في مسجد الرسول (ﷺ) كان يعيش فيه أكثر من أربعمئة منهم، هم من خُلّص المؤمنين، فتفرغوا لتعلّم العلم والنفرة إلى الجهاد، هؤلاء كان بعضهم يسقط في أثناء الصلاة من شدة الجوع حين تشُحُ الصدقات، ولم يكونوا يجدون الكساء، وكان المحسنون والرسول (ﷺ) يُساعدون بما يستطيعون ولكن الموارد شحيحة وفيهم نزلت الآية.

تُخبرنا الآية طَرَفاً من حالهم، فهم أُحصِرُوا، أي: لا يستطيعون الانفكاك من أمرين، **الأول**: الحاجة إلى المجاهدين: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. **والثاني**: هو عجزهم عن دخول سوق العمل: ﴿ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في زمن صعب، والموارد فيه شحيحة، وسوق العمل ضيق، ولا تمر سنة إلا وفيها غزوة، وهم على ضيق الحال لا يسألون الناس العطاء ولا يلحّون فيه: ﴿إِلۡحَافٗاۗ﴾. يراهم من يجهل حالهم فيحسبهم أغنياء لامتناعهم عن السؤال، ولكن من يتأمل حالهم يرى علامات الحاجة بارزة عليهم (تعرفهم بسيماهم)، لهؤلاء من الناس تُحسن الصدقة ويزداد الأجر، وقصة أصحاب الصفّة مذكورة في كتب السيرة، ولكن ما يعنينا منها أمر في غاية الأهمية، فالمجتمع المدني مجتمع بسيط والعصر عصر لم تتعقد فيه الحياة، ووظائف الدولة المعاصرة لم تتبلور حينها، وبين المُتخيل في اللاوعي المسلم

المعاصر عن ذلك المجتمع وواقع الحال فيه فجوة كبيرة. والآية تعرض الوضع الاقتصادي الذي كان يطرح نفسه كتجربة بشرية لم يتوفر حل لها حينها. ولذلك قلنا في مقدمة هذه الرحلة إن القرآن أراد أن يُقدم إلينا تجربة إنسانية خالية من المبالغة التي تطبع تعبيراتنا اليوم، وهذا جانب آخر من الصورة السابقة والتي روتها لنا الآيات، فلنتأملها جيداً.

لم يكن هناك معجزة اقتصادية، ولا مجتمع الرفاه، ولا غياب الحاجة التي يتصورها بعض المُبشرين بالحل الإسلامي الباهر لمشاكل البشرية بالطريقة التي يتصورونها، بل هناك مجتمع إنساني يصارع للوصول إلى الأفضل، ولا يدّعي القرآن ولا أهله أنهم وصلوا إليه.

وفي مجتمع الخير تبرز المبادرات النوعية الخيّرة؛ فنفر من المجتمع كانوا يتعهدون خيل الجهاد، وهي يومها الآلة العسكرية الأشد أثراً، لإطعامها وتنظيفها وإبقائها على أهبة الاستعداد للمعارك. وفي هؤلاء نزلت الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾، هم ينفقونها في خدمة العسكرية الإسلامية والأمن للمجتمع الإسلامي الوليد، وهم يقومون بذلك تطوعاً. هذا نوع من التطوع والإنفاق في غاية الأهمية، ولذلك سنقف عنده قليلاً على الرغم من أنه يحتاج إلى مؤلَّفات منفصلة.

ها هم نفر من المؤمنين ينتبهون إلى أكثر من ضرورات الفقراء والمحتاجين، ينتبهون إلى الصورة الكبيرة، وهي الخطر الخارجي المُحدق بالأمة، إلى جانب آخر من الصورة، منطقة في الظل، لا ينتبه إليها إلا من رُزق الحكمة وبُعد النظر، وهي هنا تُشكّل مثالاً يمكن القياس عليه، فماذا إن كان التهديد للأمة

يكمن في فكرها وطريقة اشتغالها؟ ماذا لو كانت الأمة مُصابة في تدبير عالم علاقاتها؟ ماذا لو كانت الأمة مُصابة في عالم نُظمها؟ ماذا لو كانت الأمة مُصابة في برامجها العلمية وبحوثها؟ ماذا لو كانت مهدّدة في أمنها الغذائي أو الدوائي؟ هي كلها جوانب تؤدي إلى هلاك الأمة وسقوطها تحت سطوة عدوها.

إنها مسألة الوعي الشامل التي تنقُص عالم الإحسان والإنفاق عندنا؛ فهناك نقص في الوعي عند الوعّاظ، وهناك نقص في الوعي عند فئات المجتمع بالغاية القصوى من الإنفاق، الغاية الدنيوية المتعلقة بالمجتمعات وبقائها. وقد بيّنا سابقاً في الآية ٢٦١ وما بعدها عمق موضوع الإنفاق وعلاقته بموضوع الإيمان.

استغلال حاجة البشر الاقتصادية

• الربا

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ❁ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ❁ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ❁ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ❁ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ❁ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ

إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٢٧٥ ـ ٢٨١].

إن الملف الاقتصادي في أي مجتمع ـ بغضّ النظر عن طبيعة المجتمع وفلسفته ـ من أخطر الملفات الحساسة، والمجتمع الإسلامي حينها هو امتداد للاقتصاد القروي السائد في العالم، وهو اقتصاد يقوم في الغالب على تبادل السلع، وهو اقتصاد محلي في جوهره وفردي في طبيعته. فليست هناك مؤسسات اجتماعية قائمة على ضبط الاقتصاد، وهي علاقة مفتوحة، فيها الأقوياء الذين يملكون والمحتاجون الذين لا يملكون. وتغيب عنها الأرضية الإيمانية التي تُطري القلوب وتربط الإنسان بالآخرة، لتُصلح بمفهومها والوعي بها عمل الدنيا، فهو عالم بطبيعته يُنتج الاستغلال وينبته، وهنا يُنشئ القرآن قطيعة مع ذلك العالم الذي يستغل فيه الغني الفقير والمحتاج ليعالج موضوع الربا.

ها هنا مُحتاج يقترض بغرض ما، وميسور يشترط أن يُرد إليه المال ومعه زيادة يُقدّرها، وإن تأخر المحتاج قال له: أتقضي أم تربي؟ أي: أتدفع ما عليك أو نزيد عليك المبلغ مقابل تأخير السداد؟ ومن الواضح من الحملة التي شنّها القرآن على هذا النوع من التعامل أنها ظاهرة مرهقة للمجتمع، وأن آثارها الاجتماعية كبيرة، ولذلك، فخاتمة وصايا الرسول (ﷺ) في حجة الوداع تضمنت إغلاق ملف الربا، وهنا القرآن يشُنُ حملة كبرى على من قالوا إنما البيع مثل الربا، هو عملية معاوضة عادلة، وفيها توظيف الأموال للربح، وهي عين العمل التجاري، فلا فرق.

أهمية توثيق المعاملات الاقتصادية

• **توثيق المعاملات**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [٢٨٢ - ٢٨٣].

إن مسألة ضمان الحقوق المالية تظهر جلية في النص، وعلى رأسها قائمة كتابة العقود، ووجود الشهود، وربط كل ذلك بالتصور الإيماني والتقوى.

الله المُطّلع على خبايا النفس

• **الخالق والنفس الإنسانية**

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ

تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٨٤].

ها هنا تبدأ خواتيم السورة بتركيز ذلك السر الدفين الذي يجعل مشروع الإيمان مشروعاً لإصلاح الحياة؛ قلباً وقالباً، إنها تربط بين المعلوم من عظمة الكون الهائل وبين عظمة الخالق المحيط بهذا الكون، ومن النظر في الكون تنطبع في النفس عظمة خالقه.

وهذا الخالق مُطّلع على خلجات النفوس وحركتها، والله يعلم كل ذلك ويحصيه، وعليه يغفر ويُعذّب بمشيئته المُطلقة، والله قادر على ذلك، لا يحول بينه وبين ما يريد شيء، إن هذا الفهم للخالق بهذا العمق يقود إلى آثاره في الدنيا وينطبع على أعمال الناس كما ينطبع عليها غيابه.

إليه المصير

• **إليه المصير**

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [٢٨٥].

بهذا الوعي العميق نفهم إيمان الرسول (ﷺ) والمؤمنين المُنتج للحياة الصالحة، فما أُنزل على الرسول (ﷺ) هو ما جاءت به النبوات كلها لإصلاح الحياة والنجاة في الآخرة، وهو الجوهر الذي يجعل المؤمنين يقولون سمعنا وأطعنا، وذلك مرتبط جوهرياً بفكرة المصير.

وسؤال المعنى هو الذي بدأت به سورة الفاتحة، وتفتتح به سور القرآن وتختم به سورة البقرة توجيهاتها: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾. كل شيء يدور في الحياة يطرح سؤال المصير على هذا الكائن المُتفكّر وهو الإنسان، فالحياة بكل ما تحمله من آلام ومخاوف مرتبطة بسؤال المعنى، والمؤمنون هنا يعلمون المصير، إنه إلى الله بلا تردد.

التكليف بقدر الوسع

- **حدود الإنسان**

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٢٨٦].

نحن نقف هنا على أكبر الحقائق وهي أن الخالق جل وعلا يعلم النفس الإنسانية ويعلم قدراتها وما تطيق وما لا تطيق، والنفس الإنسانية مسؤولة عن أعمالها من خير أو شر.

أمّا أُمّة محمد (ﷺ) فهم يدعون ربهم أن لا يؤاخذهم بالخطأ أو النسيان، وأن لا يُحمّلهم عهداً لا يستطيعون القيام به كما حدث مع من قبل أُمّة محمد (ﷺ) من أصحاب الأديان.

تلك خاتمة البقرة ورحلتها التي سرنا فيها... كم فيها من

الكنوز؟ وكم تُحمّل الإنسان من مسؤولية؟ وكم تعيد تنظيم عالم أفكاره وتعيد إنتاجه؟

إنها لمسؤولية كبرى أن نمر على كل هذه المفاهيم ثم نغفل عن عمقها ودلالاتها!

خاتمة

هذه خواطر قرآنية في رحلة ذاتية مع القرآن في محاولة التدبر والنظر، دوّنتها حتى لا تفرّ. وأردت أن أشرك معي القارئ لتذوق بعض جوانب كتاب الله في ترحال قصير مع سورتَي الفاتحة والبقرة... وإن شاء الله أن يمد في العمر سنستكمل بقية الرحلة مع القرآن في بقية سوره... فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان.

والحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين.